مجاز
طبعة ثانية
القرد الليبرالي
سفيان رجب
مكتبة نوميديا
t.me/Numidia_Library
رواية
زينب للنشر

الفرد اللّيبرالي

سفيان رجب

القرد اللّيبرالي

رواية

زينب للنشر

الكتاب: **القرد اللّبيرالي**

الكاتب: **سفيان رجب**

النوع: **رواية**

الطبعة: **الأولى 2017**

الناشر: **زينب للنشر والتوزيع**

26 شارع الحبيب بورقيبة 8090 قليبية، نابل/تونس

(216)22388773/(216)72276047

Zayneb.edition@yahoo.fr

تصميم الغلاف والإخراج الفني: **درّة بن عيسى**

ر.د.م.ك: **978-9938-921-63-2**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

الإنسان حيوان، إن اقتنعت بذلك فأنت قردٌ، وإن لم تقتنع فأنت حمار.

سعيد بنجبلي

القردة أكثر طيبة من أن يكون الإنسان انحدر منها.

نيتشه

القرد الأميركي حين يشرب البراندي ويدرك أنه مُسكر، لا يقترب منه ثانية، وبذلك يكون أكثر تعفّلا من الكثير من البشر.

داروين

تحت تمثال ابن خلدون

(1)

عصابةٌ من الظّروف القاسية تكوّنت من موت جدّي وتخاصم أعمامي وأبي على ميراث النّخلتين والجمل الأجرب وتفكّك عائلتنا الكبيرة، أسرتْني ذات صباحٍ خريفيٍّ في بيتنا الجنوبيّ البعيد، واقتادتني إلى هذه الغابة الإسمنتيّة البيضاء، التي يشقّها الضّجيجُ والميتروهات الخضراء والبشر السّمر، الذين يبصقون على الإسفلت، ويشْتمون السّماءَ التي لا يجدون الوقْتَ كيْ ينْظروا إليها، ومن يجد دقيقةً ليتأمّلها تُسْرقُ من تحت قدميْهِ قطعةُ الأرض التي يقف عليها، هكذا بدت لي مدينة تونس أوّل يومٍ دخلتها.

لم أكن أعرف من المدينة سوى شارعها الرئيسيّ ومحطة برشلونة ونهجين يربطان المحطّة بالشّارع لم أكنْ أعرف لهما اسما. كنت نازحا للتوّ من ريفي الجنوبيّ مع ابن خالتي "لزهرْ"، هو كان يعمل في محطّة بنزين قرب محطّة سيّارات الأجرة "المنصف بايْ" وأنا كنت أعمل بمطعم قبالة باب البحر، وبما أنّنا كنّا غريبين على العاصمة، فقد كنّا نتّفق

دائما على اللّقاء تحت تمثال ابن خلدون، لنستقلَّ القطار من محطّة برشلونة ونتوجّه إلى حمّام الشط حيث كنّا نسكن.

– اسمعْ لزهرْ، الذي يصل قبل صاحبه ينتظره!.

هكذا كنت أُؤَكّدُ لابن خالتي الذي يكبرني بسنتين. مجرّد فكرة الضّياع كانت تملؤني بالفزع. تمام الخامسة من مساء كلّ يوم كنت أنا الذي يلعب دور المنتظِر دائماً، أثبّت مؤخّرتي على سيّاج التّمثال، وأدقّ مسامير البصر على جدار الكتدرائيّة قبالتي، وأظلّ محنّطا هكذا حتّى يصل لزهرْ. بعد ذلك صرت أجتهد قليلا لتسلية نفسي وقت انتظاري على سيّاج التّمثال، صرت أجلب معي قرطاساً من حبّات عبّاد الشّمس المملّحةِ لألقمها لفراخ الضّجر النّاعقة داخلي، ثمّ أدقّ مسامير البصر على الجدران والأشجار والنّساء، تعلّمت كيف أنسج شبكاتٍ من نظراتي الثّاقبة، وألقي بها على أسراب الطّالبات اللاّتي يعبرن أمامي في طريق عودتهنّ من جامعاتهنّ، وأظلّ ممسكاً طرف الخيط بأصابع مرْتجفةٍ. كنت أظنّ نفسي عنكبوتاً يغزل أحابيله تحت تمثال ابن خلدون، غير أنّني انتبهت فجأة "حقيقة قذفتها في صدري عزلتي تحت تمثال العلاّمة" أنّني كنت الذّبابة المسكينة العالقة بين خيوط نظراتهنّ وهنّ كنّ العناكب.

ذات مساء اقتربت إحداهنّ، كانت عنكبوتا ذئبيّة جميلة حقّا، لها شعر فاحم السّواد وشفتان رقيقتان كسمكة "شورو"، وضعتْ قصبةً بلاستيكيّة في دماغي وبدأت تمتصّه بتلذّذ،

قالت:

– ربّما التقينا من قبل؟ في"ناف أفْغيل" أليس كذلك؟

استفزّتني لكنتها الإفرنجيّة التي أمقتها، فضحكتُ بوقاحة:

– هاهاها هل تقصدين الجامعة أم السّجن؟

وقبل أن تقطّب العنكبوت الجميلة جبينَها، ابتسمتُ لها بلطف وأنا أقول بدعابةٍ واضحة:

– وما الفرق بينهما؟ الاثنان لهما بابٌ واحدٌ.

قالت باسْتغرابٍ:

– كيف؟

قلت:

– إذا كنت طالبا ثوريّا في الجامعة ستنتهي سجيناً، وإذا كنت منبطحاً ستكون سجّاناً.

ضحكتْ ضحكة عالية:

– تبدو ظريفاً أيّها الولد.

ولم تلحّ كثيرا في سؤالها إن كنّا التقينا في جامعة "9 أفريل"، والواضح أنّ المسألة لم تكن تعنيها أصلاً إنّما كان سؤالها هو الخيط الذي شدّت به رقبتي، ثمّ ألقت خيطها الثّاني:

– أراك تنتظر أحدا؟

– نعم، أنتظر ابن خالتي.

– ولماذا؟

– نحن غريبان عن العاصمة ودائما نتّفق على اللّقاء هنا.

وتوالت خيوطها حول رقبتي ويديّ وأضلعي وساقيّ.. صرت وليمتها وآن لها أن تمتصّني، همستْ بذئبيّة:

– هل نشرب شيئاً؟

وما الذي يمكن أن تقوله ذبابةٌ مقيّدة لعنكبوتٍ ذئبيّةٍ؟. بعد دقائقَ كنّا نتقاسم طاولةً منزويةً في مقهى "لونيفار". طلبت العنكبوت قارورتيْ بيرّة بحركةٍ من يدها، وجاءت المرارة في الزّجاج الأخضر. ليلتها حاولْتُ إخفاء ارتباكي بالبيرة والضّحك، شربت كثيراً وضحكت كثيراً. كنت أحاول أن أقول للعنكبوت الذّئبيّة قبالتي إنّني لست ذبابةً، ليلتها فتحت قاموس ما تحت الحزام، ورشقت نديمتي بقصائدَ خضراء، وردّت هي بعبارات الشّكر من القاموس ذاته.

هنا يُغلق قاموس ما فوق الحزام، يُتركُ بين أيادي المؤمنين بالأنصاف العليا. هنا الجميع يشربون المرارةَ ويسبّحون بذوي الأنصاف السّفلى.

* * * *

(2)

تركنا مقهى "لونيفار"، وعبرنا شارع الحبيب بورقيبة في طريقنا إلى محطّة برشلونة، قلت لرفيقتي وأنا أترنّح:

– الآن نذهب إلى السّاحرة المضطجعة.

– أيّة ساحرة يا ولد؟ هل لعبت الخمرة بعقلك؟

كنت أرى دائماً محطّة برشلونة امرأة مضطجعة خلف

حديقتها الكئيبة تربّي أفاعيَ خضراءَ وزرقاءَ، تظلّ تمرّرها بين فخذيها وحزامها ثمّ بطنها وثدييها، وترسلها إلى الضّواحي وإلى المدن والقرى البعيدة المتفرّقة بين شمال البلاد وجنوبها.

أمّا شارع بورقيبة فقد كنت أراه عجوزا يتوسّد باب البحر، يضع لحافا من الأشجار الخفيفة والمصابيح الحزينة الذّابلة والبنايات البيضاء.. وينام، لا يوقظه شيء، لا نباح السّيّارات، لا خصام السّكارى والعواهر آخر اللّيل، لا حفلات المسرح البلدي، لاشيء...لاشيء...ولم يحدث في منام الشّارع العجوز أيّ طارئ منذ عشرين سنة سوى حالة عابرة سوف أسردها عليك الآن:

ذات صباح تسلّل إلى أحلام الشّارع العجوز سرب من النّساء، فاشتعلت فيه نار الشّهوة وانتصب قضيبه قبالة مقرّ وزارة الدّاخليّة، وهو ما أدخل الذّعر في نفوس السّاهرين على أمن الدّولة وهيبتها، ليلتها اجتمع كلّ رجال الدّولة من الجنرالات والوزراء يتقدّمهم رئيس الجمهوريّة وحرمه ومفتي البلاد بجبّته "القمرايه". وفي النّهاية خلص الجميع إلى فكرتين: الأولى اقترحها وزير الثّقافة وتقضي بقطع قضيب الشّارع، أمّا الفكرة الثّانية فقد اقترحها مفتي البلاد وتقضي بفقْء عيون المارّة في الشّارع، غير أنّ فتى نحيفا كان يرتدي قميصاً أبيضَ نظيفاً وربطة عنقٍ حمراءَ، كان يرتّب فناجين القهوة وأطباق المرطّبات على طاولة الاجتماع، اقترح

بصوتٍ مرتعشٍ فكرةً راقت للجميع، وتقضي فكرة فتى القهوة والمرطّبات أن يُصْنع أنبوب نحاسيّ منقوش، يوضع على قضيب الشّارع العجوز، وتُثبّت على رأسه عقارب تحتفي بفوات الأوان، ليبدو القضيب على شكل ساعة عتيقة، أمّا مياه احتلام الشّارع فيمكن أنّ تُصرّف على شكل نافورة تُبهج النّاظر. انتهى الاجتماع، وصفّق الجميع لرئيس الجمهوريّة وحرمه، وفي صباح اليوم الموالي كان الجميع يضحكون حول ساعة جديدة نبتت فجأة بين ساقيْ الشّارع المضطجع.

نترك الآن الشّارع العجوز نائمًا تحت حراسة وزارة الدّاخليّة وننظر إلى النّهجين اللّذين يخرجان من المحطّة، الأوّل من غربها والثّاني من شرقها ويلامسان الشّارع، أوّل الأمر كنت أظنّهما يديْ الشّيخ لكن بعد تمعّن تأكّدت أنّهما قدما السّاحرة المضطجعة.

وسط العاصمة تقريبا تضطجع محطّة برشلونة تاركة ظهرها لقبّة سيدي "بلحسن الشّاذليّ" ومقبرة "الجلاّز"، ومادّة ساقيها تدغدغ بهما بطن شارع الحبيب بورقيبة، ونحن الآن ندبّ على السّاق اليسرى لمحطّة برشلونة إذن، مترنّحين عنكبوتا وذبابة.

ضحكت رفيقتي بصوت مرتفع حين سمعت حكاية السّاحرة المضطجعة والعجوز النّائم وقالت كفتاة دلّوعة في مسلسل مصريّ:

– يخرب عقلك

ثمّ التصقت بي قليلا وهمست:

– نحن تقاسمنا الخمر والضّحك لكنّنا لم نتعارف بعد، أنا اسمي دلال، وأنت ما اسمك أيّها الشّقيّ؟

قلت لها ضاحكًا:

– أنا اسمي دلّول

– يخرب عقلك...هاها. دلّول. أوكي دلال ودلّول...هيّا دلّول لقد وصلنا.

قالت ذلك ونحن ندخل المحطّة من دبرها حيث كانت تتغوّط المسافرين، ثمّة درجات تهبط إلى نفق صغير يمتدّ عشرين مترا تقريبا ينتصب على بلاطه باعة للسّلع الصّينيّة الخفيفة كالولاّعات والسّاعات والألعاب ومقصّات الأظافر.. وينام بين عتمته بعض الشّحّاذين. آخر النّفق ثمّة درجات أخرى قلت لنفسي ونحن نصعدها: هذه السّيدة المضطجعة لها فرج بدرجات تبدو كأنّها من سلالة الملكات السّومريّة . قالت دلال:

– اسمع دلّول هذه تذكرتك وذاك قطار الضّاحية الجنوبيّة، نلتقي غدا تحت تمثال ابن خلدون، باااااااي.

قالتها وهي تطيلها إلى حدّ أنّ حرف الباء وصلني وأنا أصعد القطار وحرف الياء وصلني وأنا أنزل منه.

هذه كانت المرّة الأولى التي أركب فيها القطار دون مرافقة "لزهر"، السّفرة من العاصمة إلى "حمّام الشّط" تدوم

ساعة تقريبا، والقطار بدا لي متسمّرا في مكانه، غير أنّ الرّكّاب النّاعسين قبالتي والذين كانوا يترنّحون كالفراريج النّائمة على حبل غسيل تحرّكه ريح خفيفة، والبنايات والأشجار التي كانت تركض تحت الفوانيس، كلّهم أكّدوا لي أنّ القطار كان يتحرّك. لم أكن أعرف محطّة "حمام الشّط" ولم أشأ أن أسأل أحد الفراريج المترنّحين على حبل الوقت مخافة أن يكون نسرا من نسور جبل "بوقرنين" والتي كان ابن خالتي يحذّرني من الاقتراب منهم، فاكتفيت بالنّظر من نافذة القطار حتّى ظهرت لي محطّة البنزين ثمّ مقهى "الموزاييك" هذه هي المحطّة إذن، أسرعت إلى باب القطار وقفزت على رصيف المحطّة كالقرد، ذاكرة الفيل التي أملكها لم تخرّبها قوارير البيرّة، هذا المنعطف الذي كنّا نسلكه أنا و"لزْهرْ" حين نقصد محطّة القطار، هذا كشك صديقنا الجربي، ثمّ هذه الفيلاّ الزّرقاء وسيّارة الميغان الباركة قدّامها، أخيرا هذا الباب القصديريّ لجحرنا اللّيليّ، انهلت عليه بالصّفع وجاءني صوت "لزهرْ" من الدّاخل:

– أنا قادم..لحظة.. أنا قادم..

قالها بصوت متشنّج وهو يفتح الباب، ويفتح معه قاموس ما تحت الحزام:

– جئت يا ابن العاهرة.

ثمّ مسكني من رقبتي وجرّني إلى الدّاخل:

– هيّا ادخلْ يا ابن القحبة.

وتتالت الكلمات المنتقاة من قاموس ما تحت الحزام وتتالت معها الصفعات.. قلت له بصرامة:

– اسمع "لزهرْ" يجب أن تحترم نفسك، إذا كنت أنا ابن قحبة فهي في النّهاية أخت أمّك، أنا مسؤول عمّا أفعل ولست صبيّا يحتاج إلى وصايتك.

قلت له ذلك بحنق ودخلت غرفتي، بعد ذلك رأيت ظلّ ابن خالتي وهو يمدّ سبّابته ناحية رأسي على شكل مسدّس:

– اسمع يا ابن خالتي "وفا لقْدرْ وفاتْ العيشةْ" الآن وقد تهدّم جدار الآجر الذي بيننا ابْحث عن مكان آخر يؤويك.

انتهى الفصل القصير من مسرحيّة الظّلّ عقبها صوت انغلاق الباب. ليلتها لم أفكّر في المكان الذي سوف آوي إليه بعد أن طردني "لزهرْ" من مملكته، فقط كنت أفكّر في أكوام الآجر المكدّسة بيننا: ترى هل تكفي لنبني بها أضرحة الأخلاق التي أعدمناها؟.

دلال

(1)

واقفة قبالة تمثال ابن خلدون كانت دلال تنتظرني، وقد استندت بيديها على سياج التّمثال فبدت مثل امرأة تطلّ من شرفة في إحدى لوحات "سالفادور دالي"، كانت إليتاها تعضّان قليلا ثوبها الأزرق الشّفّاف، بينما شعرها الأسود الطّويل يلامس أعلى مؤخرتها، فبدا مثل سرب خطاطيف هبط ليشرب من فسقيّة زرقاءَ. اقتربت منها حتّى التصقت كتفي بكتفها وهمست لها:

– أهلا دلال

– أهلا دلّول

هي لا تزال تناديني دلّول رغم أنّها تعرف أنّ الأمر مجرّد مزحة، ربّما لاقترابه من اسمها، أو ربّما رأته يناسب هيأتي الرّيفيّة التي تغلب عليها السّذاجة أو ربّما أحسّت فيه خفّة في النّطق.

قالت بذئبيّة:

– اسمع دلّول، البارحة استضفتك على كؤوس بيرّة واليوم

دورك أنت يا رجل.

استوقفتني كلمة "رجل" في جملتها، مجرد خروجها من فم أنثويّ ملأني بإحساس الرّجولة الذي لم أعرفه منذ دخولي العاصمة. أنا الآن رجل يرافق امرأة جميلة خرجت للتّوّ من لوحة سالفادور دالي، انحرفْتُ قليلا إلى مدخل لونيفار لكنّ دلال شدّتني من يدي:

– ما رأيك لو نذهب إلى بار آخر؟ أعرف بارا شعبيّا سيروق لك، هو ليس بعيدًا.

أومأت لها برأسي"نعم" وواصلنا الطّريق.

هرب الرّجل فيّ، وعادت الذّبابة، بينما العنكبوت الذّئبية تقودني الآن من يدي، وتنعطف بي مرّة إلى اليمين ومرّة إلى الشّمال، حتّى وقفتْ أمام باب عُلّقت عليه صور بيرّة هاينيكان، قالت دلال:

– هذا بار قاريبالدي (بينما نحن ندخله) المكان كان سكران بالضّوضاء وغارقا في دخان السّجائر، انتبهتُ ونحن نعبر بين الطّاولات أنّ دلال كانت المرأة الوحيدة في المكان، وأحسست بحرج كبير من نظرات السّكارى إلينا، غير أنّ العنكبوت الذّئبيّة لم تعرهم اهتماما، ربّما كانت ترى فيهم مجرّد ذباب لا يتقن سوى الطّنين على الجيف والمواسير. قالت:

– سنصعد إلى الطّابق الثّاني

صعدنا، وأخذنا طاولة في إحدى الزّوايا، ثمّ جاءت

المرارة في الزّجاج الأخضر..قلت في نفسي، وأنا أجيل بصري في المكان:

– لو كان هذا البار شخصا فلن يكون سوى محارب حزين خرج من حرب خاسرة، وهو يضع الآن سيفه بين الأزهار وينظر إلى الغروب، رغم أنّه يملك درجات مثل السّيدة المضطجعة.

قالت دلال:

– فيم تفكّر؟

قلت لها:

– اللّيلة ليس لي مكان آوي إليه، البارحة طردني ابن خالتي من بيته، وهذا الصّباح طردني صاحب المطعم من العمل.

قالت بطريقة المسلسلات المصريّة:

– ادّيها يا رجل،

فأدّيتها.

وقالت:

– انس همومك،

ولم أنس.

لم نشرب ليلتها كثيرا، ما كدت أنهي قارورتي الثّالثة حتّى استوت دلال واقفة:

– هيّا يا ولد، لا بدّ أن نذهب الآن لأتدبّر مسألة مبيتك اللّيلة.

دفعت هي ثمن ما شربنا، وخرجنا من حضرة المحارب الحزين. عبرنا شارع بورقيبة ودببنا فوق ساق السّيدة المضطجعة، كانت الأشجار العالية تنثر على أكتافنا أزهاراً بنفسجيّة تسقط بطريقة سينمائيّة تضيئها فوانيس سورياليّة، المحلاّت التجاريّة حول النّهج بدأت تتثاءب واضعة أياديها على أفواهها، والحركة بدأت تثقل قليلاً، عبرنا جنب السّيّدة المضطجعة، ولم أشأ إزعاج رفيقتي بسؤال بائخ "أين نذهب؟" حتّى وقفت أمام بنايةٍ قبيحة لها فم أدرد وشعر أشيب، وقالت:

– انتظر هنا. لحظات وأعود إليك.

لم تغب دلال أكثر من دقيقتين كنت أحسبهما ثانية... ثانية..وأنا أنظر إلى ساعتي الصّينيّة في معصمي، حتّى عادت إليّ وعلى وجهها ابتسامةٌ خَافِتةٌ، وقالت:

– هيّا ندخل.

دخلنا، المكان كان سكران برائحة موادّ التنظيف، بينما الجدار الخلفيّ يرفع لافتة تشتعل حروفُها بضوء ورديّ مكتوب عليها "قاعة استقبال" وقبالة اللاّفتة جلس رجل أصلع ذو ملامح كابوسيّة يتبادل الوشوشات مع امرأة تبدو كأنّها خرجت للتّوّ من علبة ماكياج. لها رموش عنكبوتيّة وهي تطقطق الشّوينغوم، قال الرّجل بلهجة شرطيّ:

– بطاقة تعريفك.

رأيت في عينيه ظلالاً من الاحتقار والنّقمة والقسوة...وأنا

أمدّ له بطاقتي التي ترفرف فيها سبع حمامات. بعد أن أتمّ رجل الكوابيس تعمير قصاصة زرقاء، وأعاد إليّ بطاقتي، صعدت مدرجاً مع دلال أفضى بنا إلى رواقٍ يحرسه مصباح شاحبٌ، قالت لي دلال هامسة وهي تدير مفتاحاً في فرج باب أخضر:

– سيكون أمامك الوقت غدا لتتدبّر أمرك في سكن.

داخل الغرفة مصّتني العنكبوت الذّئبيّة بقبلة مباغتة، تركتني أدور حول نفسي.. وقالت:

– هذه غرفتك.. نومًا هانئاً..لا تنتظرني صباحاً..نلتقي تحت التّمثال..باااااايْ..

قالت جملها دفعة واحدة كأنّها صلاة تائب قبل قيام السّاعة بدقيقةٍ، ثمّ أطبقت خلفها الخشبة الخضراء، وذهبت.

على الفراش السّكران برائحة موادّ التّنظيف كنت أفكّر في أمر دلال واستنتجت أنّها كانت تتعامل معي كمرافق غبيّ، ضغطتُ على اللّحاف بقبضة يدي اليسرى وأنا ألوك في رأسي كلمة "مرافق". إذن لست رفيقها؟. ودخلت في نقاش حارق مع نفسي:

من هذه الفتاة؟ ما قصّتها؟ ومن أيّ مدينة أو قرية قدمت إلى العاصمة؟ وما سرّ إقامتها في هذا المكان الذي يحرسه رجل الكوابيس؟ ثمّ حسمتُ الأمر مع نفسي: وما دخلي أنا في أمرها أصلاً ؟

نسيت أمر دلال، وانشغلت بصرصور في زاوية غرفتي كان يتودّد إلى أنثاه، كان صرصورا جميلاً بأقدامه الخلاسيّة اللاّمعة، وكانت أنثاه تبدو أكثر سواداً منه، زحفتُ إليهما هامساً:

– لا تخاف، لست بوليساً، أنا شاهد على حبّكما الآن.

ومسختْني رغبتي صرصوراً عملاقاً يستمْني على جليزٍ أصفرَ.

* * * *

(2)

بعد تلك اللّيلة، صرت أرشق "دلال" بوابل من الأسئلة التي أخرجها من كنانة شكّي، أصبحت كثير الملاحظة لسلوكها ولباسها...حتّى أنني تجرّأت يوما وقلت لها:

– لمَ تشربين الكحول وتدخّنين؟ هذا لا يليق بامرأة مثلك.

يومها زعقتْ في وجهي مستعينة ببعض الألفاظ المنتقاة من قاموس ما تحت الحزام:

– يا ابن القحبة تعبّ البيرّة على حسابي وتتدخّل في شؤوني. من أنت لتقول لي هذا الكلام؟

كانت دلال شابّة جميلة، تلفّها غلالة من الغموض والزّرقة، عربيدة ونزقة، تبدو صيّادة رجال بامتياز رغم أنّها تحاول إخفاء ذلك مثبّتة ابتسامة مونالیزيّة على شفتيها، "العنكبوت

الذئبيّة تضع قناع فراشة". أعترف الآن أنّها هي التي فتحت عينيّ على العاصمة، أخذتني إلى الكثير من المطاعم الشّعبيّة والرّاقية، إلى النّزل الفخمة التي تحمل فوقها سماء من نجومٍ، وإلى النّزل الشّعبيّة الفقيرة التي لا تملك حتى شعاع نيزك مدفون في الرّبع الخالي. كثيرة هي البارات التي دخلناها وقاعات السّينما والمسارح.. لكنّ المكان الذي فجّر ينابيع مخيّلتي كان "حديقة البلفدير"، رأيتها قدّيسةً جميلةً تحبّ العشّاق والأطفال.. تملك حوضا أخضر يسبح فيه البطّ، وأقفاصاً كثيرة ترفرف فيها طيور نادرة وتمرح فيها دببة وسباع وغزالات وقردة..

يوم قادتني دلال إلى حديقة البلفدير، قلت لها بحماس:

– كم أحبّك يا عاهرتي الجميلة، هذا مكاني.

ضحكتْ وهي تشير إلى قفص القرد:

– هاهو أخوك هاها..

قلت لها جادّا:

– نعم، إنّه أخي وأخوك وأخ جميع البشر، جدّانا كانا أخوين وافترقا، جدّنا هجر الغابة وجدّه بقي هناك في مملكته الخضراء.

وبدأت أقصّ عليها نظريّة "داروين" وقصّة القرد المتطوّر في رحلته من غابة السّافانا إلى نيويورك، حتّى صرخت في وجهي:

– يكفيك هذيانا، لا ينقصك أنت وداروينك هذا سوى

أن تضعنا في قفص وتفرّج فينا هذا وأمثاله.

قالت كلامها وهي تشير إلى قفص القرد.

– آه يا عاهرتي الجميلة كم أنت ساحرة ومدوّخة، اغمضي عينيك وتخيّلي هذا المشهد: نحن الآن قردان في غابة مطيرة نمارس الحبّ فوق شجرة دلب!.

لم تكن "دلال" دليلتي الجميلة في مدينة تونس فقط، إنّما كانت ملكة خليّة استعاراتي، كانت تبدأ الفكرة فأكملها بطريقة تذهلها، حتّى نطقت مرّة:

– أنت لست حملا كما كنتُ أظنّ، أنت جرو ذئاب.

مرّة كنّا عائديْن من حديقة البلفدير إلى مبيت العاهرة العجوز، اعترضنا شابّ هزيل، يبدو عليه عرج خفيف، كانت عيناه زائغتين فتبدوان كأنّهما تنظران إلى دماغه إلى حدّ أنّه كاد يصطدم بنا قبل أن ينحرف بسرْعة مثل خفّاش يراوغ عمود كهرباء أو شجرة. هتفت "دلال" في وجهه:

– جلّول، أين أنت يا ولد؟ "يخرب عقلك".

وانهالت عليه لطماً وقبلاتٍ، ثمّ نظرت إليّ ضاحكةً:

– مسكين درويش، يُشعل ورقة بعشرين ديناراً ليبحث في الظّلام عن دينار ضائع.

ولم تكفّ عن الضّحك حتّى بعد أن فارقناه، وهي تحكي بعض طرائفه، قالت:

– هل تعرف أنّه جاع مرّة، فذهب إلى مركز التّبرّع بالدّم، ليعطي لترا من دمه مقابل وجبةٍ خفيفةٍ؟ هاهاها...

قلت لها:

– وما الغريب في الأمر؟ كلّنا نفعل ما يفعله جلّول بطريقته أو بطرق أخرى.

– هاهاها أنت أحمق مثله دلّول.

قلت لها بحزم:

– اسمعي أيّتها العاهرة، ثمّة من يبيع ما أغلى من دمه، شرفه مثلا، مقابل أربع قوارير بيرّة، وثمّة من يبيع أمّه، وثمّة من يبيع وطنه بأبخس من ذلك بكثير..

– دعك أيّها القرد من مواعظك الرّخيصة، لقد أثارتني حكاية القردة وهي تتنايك فوق أشجار الدّلب، ما رأيك بتجربة الأمر؟

باغتني اقتراحها كمن صُعق بهراوة كهربائيّة، فلازمت الصّمت، بينما هي كانت تطلق ضحكات داعرة ونحن ندخل بناية السيدة العاهرة. في المدرج الذي يصعد بنا إلى الطّابق الثاني حيث توجد غرفتي، نظرتْ إليّ بعينين يقطر منهما الشّبقُ، وأدارت لسانها فوق شفتها العليا، وهمست بصوت يشبه الفحيح:

– سأمتصّ دمك أيها القرد.

أحسست بخدر في مفاصلي، ومرّ أمامي شريط متقطّع رأيت فيه "عبد الله" الطفل وهو عار تحت نخلة "العبابيث" كما كان يسمّيها سكان قريتنا، يرتعش بين فخذيْ "زهرة" السّمراوين، ومع انفتاح باب غرفتي سقطت على خدّي كفّ

قاسية خرجت لي من شريط الفلاش باك، كانت كفّ عمّي "محمود" والد زهرة، فرفعتُ يدي لأخفي بها وجهي بينما كانت دلال تضحك:

– ما بك يا عبد الله؟

وفي اللحظات التي كانت دلال تُدخل يدها تحت سروالي، خرجت لي من شريط الفلاش باك هراوة أبي وهو ينهال بها على كتفيّ: يا ابن القحبة تتعدّى على شرف ابنة عمّك. صرخت: يا أبي يا أبي...فضحكت دلال ضحكات مكتومة وهي تضغط على أيري الذي كان مرتخيا مثل قطعة لحم مقدّد:

– أتخاف النّيك أيها القرد ههه

هطل رذاذ من العرق البارد على جسدي، ولم تنجح دلال في إشعال ولو جمرة خافتة من أكوام الرّماد التي غطّتني، أخيرا تركتني وانحنت لترتدي أثوابها التي ألقت بها فوق السرير، وقبل أن تصفق الباب خلفها بتشنّج، نظرت إليّ أفاع زرقاء تطلّ من عينيها، وبصقت في وجهي سمومها:

– اسمع أيها القرد العاجز، إذا رأيت وجهي مرّة أخرى فاكتب عليه ببصاقك اسم أمّك.

بعد أن خرجت دلال، دبّت الحياة في قطعة اللحم المقدّد، وانتفضت بين فخذيّ مثل مارد صغير، اللّعنة "وقت حاجتي بيك يا وجهي خبشاتك القطاطس"، بصقت عليه بحنق، وشددت على اللّحاف بقوّة قبضتي، فكّرت بأن ألحق

بدلال إلى غرفتها وأحرق جسدها الملغّم بلمسة من مشعلي، تماما مثلما يفعل أحد الأشرار في فلم هنديّ حين يصبّ البنزين على كشك رجل طيب ويلمسه بهراوة من نار، لكن....

– قد ترفضني دلال بنيراني وماردي، وتكتب شتائمها التي يمكن أن تملأ عشرة مجلّدات ببصاقها على صفحة وجهي.

– قد يخونني هذا اللعين ويعود قطعة لحم مقدّد

– ثمّ إنني لا أعرف غرفتها العاهرة.

هذا الاستنتاج حسم النّقاش الحادّ بيني وبين نفسي، ولأنسى خسارتي الفادحة، كان لابدّ من إشعال سيجارة، لأصنع منها سحباً صغيرة من الدّخان الشّفاف، ثمّ أطردها بريح خفيفة تخرج من بين شفتيّ، تماماً مثلما يفعل الخريف فوق الغابات والأنهار لينسى أنّ ماضيه صيف وأنّ مستقبله شتاء.

الذّئب

(1)

بعد تلك اللّيلة، اختفت دلال.

بقيت وحيداً في مدينة لا تعرف اللّه، أتبع طيف دلال بين الشّوارع، على ضوء الفوانيس الحزينة، أتلمّس الكراسي التي جلسنا عليها في الحدائق والمحطّات والبارات...علّني أجد قطرة واحدة سقطت من روحها وأخذت شكل رائحة عتيقة لا تشمّها سوى أصابعي، وفي المساءات الحزينة التي كنت أسير فيها وحيداً أدركت أنّ اليتم لا يأتي من جهة الأمّهات فقط.

في اليوم الأوّل الذي افتقدت فيه دلال بعد أن اتّصلت من الهاتف العموميّ بهاتفها الجوّال وأجابتني امرأة فصيحة تقول: إنّ هاتف مخاطبكم مغلق. بحثت عنها في أماكننا المألوفة، حول تمثال ابن خلدون، في مقهى لونيفار، في بار قاريبالدي، في حديقة البلفدير...لكن دون جدوى.

عدت إلى غرفتي في مبيت العاهرة العجوز، وقد تشوّشت خليّة استعاراتي، في قاعة الاستقبال كان الرّجل ذو الملامح

الكابوسيّة يتغامز مع امرأة الميكياج، حين دخلتُ التفت إليّ بعصبيّة كأنّه كان متحفّزا في انتظاري:

– إلى أين؟ إلى أين؟ هيّا إلى الخارج.

قلت:

– أبحث عن دلال.

– من هذه دلال؟ (أجاب صارخا)

– لعلّه يقصد زهرة (قالت امرأة الميكياج ضاحكةً)

قال رجل الكوابيس:

– اسمعني جيّدا، زهرة عادت إلى قريتها، إن كنت تريد قضاء الليلة فلا بدّ أن تدفع النقود. ثمّ استدرك قائلا:

– حتّى وإن دفعت فلا إقامة لك هنا.

الذّبابة التي كانت تطنّ داخلي كانت قد تحوّلت ذات ليلة صرصوراً يستمني على جليز أصفر، والصّرصور كان هو الآخر قد تحوّل البارحة جرْو ذئاب، والآن كبر الجرو وصار ذئباً شرسا يعوي في قاعة استقبال العاهرة العجوز:

– اسمعووا...أنا أعرف كلّ شيء ويمكن أن أبلّغ الشّرطة.

ولا أعرف لماذا صرخت هكذا؟ ثمّ إنّني لا أعرف شيئاً، وماذا سأقول للشّرطة؟ كنت مشوّشا ولا أعرف ما أقول. غير أنّ الرّجل الكابوسيّ انتابه ذعر واضح، وهو يتبادل النّظرات الصّامتة مع امرأة الميكياج التي فتحت فمها وهي تلوك الشّوينغوم مخاطبة صاحبها دون أن تلتفت إليّ:

– اسمح له بقضاء اللّيلة ومن صبيحة الغد يتدبّر أمره.

مدّ الرّجل يده إلى لوحة المفاتيح راضخاً لعوائي، ثمّ رمى لي مفتاح الغرفة صارخا:

– اللّيلة لا غير يا....

التقطت المفتاح، بينما عيناي لا تفارقان وجهه الذي يقطر منه الحقد والكراهيّة، قلت:

– تصبحان على خير

وأنا أبدّل نظراتي نحو امرأة الميكياج التي كانت منشغلة بتأمّل أظافر يديها بطلائها الأسود كزوجة الشّيطان. أجابتني الجدران:

– تصبح على شجرة أيّها القرد.

تلك اللّيلة قضّيتها بين السّرير والباب على أطراف أصابعي كاللّصّ، كنت قد عزمت على اكتشاف سرّ هذه العمارة القبيحة. بعد منتصف اللّيل، وقد هدأت الحركة قليلاً، فتحتُ الباب بحذرٍ، ومشيتُ على أصابع قدميّ متوغّلا في الرّواق الذي كانت تذهب عبره دلال إلى غرفتها، آخر الرّواق كان هناك مدرج صعدته إلى رواق آخر كانت الإضاءة فيه أكثر خفوتا من الأوّل، تنصّتُّ من خلف الأبواب، فسمعت شخيراً وضراطا ووشوشات وضحكات مكبوتة ولهاثا...ثمّ أفضى بي الرّواق إلى مدرج آخر صعدته إلى رواق آخر، واستمعت فيه إلى جوقة الضّراط والشّخير واللّهاث والضّحكات والوشوشات..حتّى أتيت على الطّوابق الخمسة للبناية والتي تأكّدت ليلتها أنّها ماخور سرّي.

لم تشدّني إلى العاهرة العجوز الرّغبة في اكتشاف أسرارها فحسب، إنّما حاجتي كذلك للاحتماء بجحر ليليّ مثل أيّ كائن نهاريّ. وهكذا كلّ مساء كان الذّئب فيّ يعوي بين جدران حمراء أمام وجه الكراهيّة وعلبة الميكياج، قبل أن أصعد المدرج الحلزونيّ، وأبدأ غزواتي اللّيليّة بين الأروقة الشّاحبة.

* * * *

(2)

في ليالي العاهرة العجوز التي قضّيتها زاحفاً على الجليز الأصفر، اكتشفتُ ما تحت الحضيض، رأيت أوّل اللّيل رجالا يدخلون بربطات أعناق يعلّقونها مع بدلاتهم الأنيقة على مزاليج النّوافذ، ويزحفون عراة بين الأفخاذ اللاّمعة من أثر الزّيوت والمساحيق، ثمّ يقبّلون الفروج الحزينة ويلعقونها مثل كائنات تشبههم غير أنّها تمتاز عليهم بذيول معقّفة تحرّكها ذات اليمين وذات الشّمال، ثمّ رأيتهم يدخلون قضبانهم في أكياس بلاستيكيّة، ويبدؤون حصصاً روتينيّة من اللّهاث لا تنتهي إلاّ حين تشتعل هواتفهم الجوّالة وتردّد لهم أغنيات عن رضاء الوالدين ومحبّة الرّسول الكريم، فيرفعونها إلى آذانهم، بينما أياديهم لا تزال ممسكة بقضبانهم ويردّدون كلّهم الجمل ذاتها:

– عزيزتي...أنا الآن في العمل، دقائق، وأكون في البيت.

ماذا أعددت لنا اللّيلة؟

رأيت كذلك الشّبّان اللّيبيّين يحملون أطناناً من الكبت على أكتافهم، تصطادهم العناكب الذّئبيّة من مقاهي شارع بورقيبة، وتجرّهم إلى حضرة العاهرة العجوز ليؤدّوا لها طقوس الولاء والطّاعة. ورأيتهم كيف يتهرّبون من أكياس البلاستيك، يقولون:

– ليكن اللّحم على اللّحم وسوف نضاعف الأجر. فتضحك العناكب الذّئبيّة لأنّهنّ حدائق ايدز متجوّلة، ويفتحن أفخاذهنّ لمكبوتين ينكحون ويبكون، يدفعون أكثر ليقطفوا زهرة ايدز ويضمّوها إلى باقة شبابهم.

أمّا آخر اللّيل فقد كان مخصّصا للزملاء كما كانت القحاب تقول، للكلاب البوليسيّة المدرّبة على شمّ الدّم والكوكايين، ولجواسيس المخابرات...الكلّ يأخذ نصيبه من اللّعق واللّهاث. تظلّ مجموعة قليلة هي من الطّيور المكسورة أجنحتها "النّازحون والغرباء" بعيدة عن شبكة اللّهاث السّريّ، والأصحّ أنّ بعضهم كان موجوداً للتّمويه، والبعض الآخر اختارته إحدى العناكب لمرافقتها في أماكن صيدها لطلاّب الهوى بين المقاهي والملاهي والبارات..

ليال كثيرة قضّيتها متطفّلا في عمارة العاهرة العجوز ولم أدفع ملّيماً واحدا مقابل إقامتي. بعناد افتككت غرفة وقطفت ما استطعت من عسل آخر اللّيل من كهوف الايدز واللّهاث. كنت كلّ مساء أعود، وأطلب مفتاح الغرفة من رجل

الكوابيس، بعد مونولوج العواء والكلمات المنتقاة من قاموس ما تحت الحزام:

– المفتاح يا حارس الماخور

– لا بدّ أن تدفع مقابل إقامتك

– المفتاح، أو أخبر الشّرطة.

وفي كلّ مرّة كانت تتدخّل علبة الميكياج بيننا، ثمّ ألتقط مفتاح غرفتي، وأصعد المدرج الحلزونيّ. حتّى جاء اليوم الذي طُرِدْتُ فيه من عمارة العاهرة العجوز وإلى الأبد. ليلتها عدت وفي رأسي تطنّ استعارات قصّة جديدة، دخلت قاعة الاستقبال بتكاسل، وقبل أن أعوي بين الجدران الحمراء، رأيت عملاقاً ينفخ صدره،"كونغ" يمدّ يده ليمسك غمامة ويجفّف بها جبينه المتعرّق، كان واقفا بين رجل الكوابيس وعلبة الميكياج، كان عمارة شاهقة من عضلات، وقبل أن أفتح فمي، خرجت من بناية العضلات تلك قبضة كالصّخرة، ولطمتْني على خدّي الأيمن، لم أر بعدها سوى سرب عصافير يطوف حول رأسي، سلّمتها يدي، مسكت إحداها ومددتها للعملاق، هامساً:

– خذها لتغنّي لك في عيد ميلادك.

غير أنّني رأيت العصفورة تعود مع السّرب وتطوف حول رأسي ثانية، فتأكّدت ساعتها أنّ الصّخرة الزّرقاء لطمتني ثانية، ثمّ ألقت بي على قارعة اللّيل. وكان لابدّ أن آخذ عصافيري وآوي إلى أيّ مكان آمن. فكّرتُ في حديقة

البلفيدير، ثمّ عبرْتُ الشّوارع مترنّحاً تحت الفوانيس السّوريالّية الشّاحبة والأزهار البنفسجيّة التي تنشرها الأشجار العالية، بينما كانت عصافيري تتبعني.

في الحديقة الخلفيّة لقرطاج

(1)

الصّور غامضة ومشوّشة أمامي، فقط أذكر أنّني كنت أسير وسط ضباب أزرق، تتساقط حولي أوراق برونزيّة، بينما رفيقتي تمشي أمامي وقد تزيّنت مؤخّرتها بزهرة حمراء فاتنة، وهي تحرّك ذيلها بتودّد، وصغارنا يتقافزون على الأشجار ويرجموننا بالثّمار ضاحكين، حتّى فاجأتنا عصابةُ قِردَةٍ غريبة عن جزيرتنا، كانت ملامحهم تشبهنا رغم أنّ جلودهم تساقط عنها الشّعر فبدوا مثل عظاءات عملاقة، كانوا يحملون على أكتافهم قضبان حديد صوّبوها نحونا، وخرج منها دخان أزرق، ثمّ تبع ذلك صوت موحش: واك..واك..

نهضتُ من نومي مشوّشاً، كانت الشّمس قد أطلّت من البنايات العالية، وألقت دنانيرها الفضّيّة في بركة البطّ الذي كان يلتقطها ويغنّي بصوت أجشّ:

– واك..واك..واك..

تحسّست يدي اليمنى، كانت ثقيلة مثل عربة الجنائز، وكان يقضم أناملها دبيب خفيف لكثرة ما ضغطْتُ عليها

برأسي أثناء نومي البارحة تحت سور الحديقة.

هذه اليد الكريمة، كلّما جعت كانت ملعقتي، وكلّما نمت على قارعة الدّنيا كانت وسادتي، وكلّما انتصبت أفكاري كانت فرج امرأتي، وكلّما فكّرت كانت أريكتي...

حرّكت أصابعي، ثمّ فركت عينيّ وأزلْتُ عنهما القذى. كان حلمًا إذن!. تذكّرت نظريّة "حميد لعْور" في الأحلام، كان يقول: الأحلام السّيئة أفضل من الأحلام الجميلة. وكنّا نسأله باستغراب "كيف؟" فيوضّح لنا: إن حلمت مثلا بشيطان يخز مؤخّرتك بمذراته حين تفيق ستحمد اللّه على نجاتك من الجحيم وتفرح ليقظتك، وحين تحلم بملاك يفتح أمامك الجنّة بأنهارها وأشجارها وحوريّاتها.. ستأسف لفقدانك كلّ ذاك النّعيم وتحزن حين تنهض من النّوم.

لكنني الآن لا أعرف هل أفرح أم أحزن؟ لا أعرف أكان حلمي جنّة أم جحيما؟ كان حلما من عائلة أحلام اليقظة. نفضت ملابسي ممآ علق عليها من عشب يابس وغبار، وتوجّهت نحو بائع "كاكي" كان يطوف حول العشّاق بسلّته البيضاء، اشتريت كيسين، وقلت: الآن أذهب إلى صديقي "أبو خلف".

متّكئا كان على جذع شجرة قَزَمة، يتأمّل البشر المتحلّقين حول قفصه، يبدو هادئا هذا الصّباح، كان قردا وسيمًا من فصيلة "البونوبو"، كما كُتب على اللّافتة المثبّتة على قفصه، قلت يستحقّ اسما عربيّا أصيلا، سيكون مثلا

"أبو خلف".

كانت العرب قديما تطلق على القرد أسماء ظريفة مثل "أبو حبيب" أو "أبو خلف".. ناديت صديقي:

– هيّا يا أبا خلف، قاسمني وليمتي، رغم أنّك سبّبت لي إهانة لا تُمحى من خاطري.

رميت له أصابع الكاكي، وراقبته وهو يلتقطها من بين الأعشاب ويقضمها.

. لعلّك تتساءل الآن عن فعلتك الشّنيعة في حقّي؟. ألم تكن أنت صاحب فكرة النيك على الأشجار؟، وها أنا الآن مثلك وحيد ومشرّد بلا رفيقة. أنت تسألني عن الفتاة التي كانت معي في المرّة الأخيرة التي زرناك فيها؟. هل تعرف أنها كانت مجرّد قحبة تتبع غرائزها مثل الأتان والحبّ عندها يقاس بطول القضيب. لم تضحك منّي أيها القرد السّافل؟. أنت مثلها لا تعرف شيئا من معاناتي التي تحوّلت شبكة من عقد يعلق فيها كلّ حلم صغير، وكلّ فكرة نورانيّة تشكّلت من طين أيّامي الآسنة وبدأت تأخذ شكل سمكة، لكن في اللحظة التي تحاول فيها القفز في التيّار الهادر الذي يخرج من روحي تعلق في تلك الشبكة. أعرف أنّك لا تفهم معنى هذا الكلام، فما أنت سوى مسخ كما كانت تقول جدّتي "بيّه"، وأعرف أنّ هذا الكلام سيغضبك ويقطع حبل الحوار بيننا لكن....آه أنت تسأل عن حكاية المسخ؟ حسناً، كانت جدّتي"بيّه" تقول: إنّ القرد إنسان مسخه اللّه لأنّه مسح برازه

بالخبز. أرأيت يا ولدي عاقبة من يستخفّ بنعمة اللّه!. في نظريّة جدّتي، القرد هو نتيجة التقاء الخبز الطّيب بالخبز المتعفّن.

آه يا أبا خلف، لو تركت دبرك ببرازه لنجوت من المسخ! اضحك. اضحك. فالحياة هي الأخرى مجرّد قحبة، ورغباتها تقاس بطول القضبان.

* * * *

(2)

في مقهى البلفدير، وأنا أجترّ الضّجر، وأراقب جموع العشّاق الذين التصقوا بالكراسي، خطرت ببالي لعبة كنت ألعبها في ساعات الانتظار أو الفراغ، وهي لعبة اكتشفتها في الطّفولة يوم قرأت ذلك الكتاب الغامض المكتوب على غلافه "رسائل إخوان الصّفا وخلاّن الوفا" كتاب لم أفهم منه سوى القليل القليل، ولا أعرف كيف وجدت الطّاقة لقراءته، ربّما كان عنادي أمام كلّ غموض وانغلاق هو ما ثبّتني ليال طويلة خلف ذلك الكتاب العجيب على ضوء المصباح النّفطي، في إحدى فصول الكتاب الذي لا تزال هالته تضيء الذّاكرة، كان أحد إخوان الصّفا يتحدّث في ما معناه أنّ الإنسان لم يصنع حضارته إلا بمحاكاة الحيوان، فهو النمل في سياسته، وهو الطير في غزله، وهو الجمل في صبره، وهو القرد في رشاقته وخفّته، وهو النّحل في نظامه وسموّه،

وهو الفيل في ذاكرته، وهو الببّغاء في تهكّمه...الخ.

الإنسان إذن كوكتال حيوانات. كنت أتأمّل أفراد عائلتي وأحاول اكتشاف ما يخبّئه كلّ واحد فيهم من حيوانات داخله، كنت أرى في أمّي كلّ الحيوانات المليحة، فهي مزيج من ناقة وفرس وحمامة زاجلة...أما أبي فهو مزيج من طيور حزينة وغاضبة فهو بلشون وديك روميّ وغراب...أمّا أخي الأصغر الذي كنت دائم الخصام معه فهو جرو ضباع وفرخ بوم وجحش..

سكنتني قناعة راسخة حدّ اليقين أنّ في أعماق كلّ إنسان ثمّة حيوانات لا تظهر إلاّ في كلامه أو في نظراته أو في قسمات وجهه، وهي تحاكي سلوكه وأفعاله أو هو الذي يحاكيها.

تذكّرت لعبة الطّفولة تلك، وأنا ملتصق بجذع الشجرة العملاقة التي تتوسّط المقهى، ورحت أجرّبها على الجالسين حولي: ثمّة فتاة بدينة تجلس صامتة قبالة شابّ، ركّزتُ عدسة الكاميرا عليهما، في عينيْ الفتاة ثمّة جاموسة تجترّ، أمّا الشّاب فكانت نظراته بليدة وباردة تسكنها رخويّات خضراء، بمجرّد غمزة خفيفة من العين اليسرى للشّاب، اختفت الجاموسة من عينيْ الفتاة، وظهرت أتان وحشيّة تنهق شبقاً، اختفت الرّخويات من عينيْ الشّاب، وظهر ضبع يبتسم قرب جثّة، وانطلق صراع صامت بين الفتاة والشّاب يغذّيه نهيق وعواء.

بل إنّ المكان كلّه كانت تنبعث منه روائح ثقيلة هي مزيج من روائح خنازير وثعالب ودواجن بلّلتها الأمطار، ومن عيونهم تخرج آلاف الحيوانات: قنافذ، كنغر، ثعابين، حرابي، ثيران، دببة، نعاج، ذئاب، بطّ، سلاحف، ثعالب، أسماك، سحالي، قطط، ماعز، خيول، أحمرة، سرطانات، ذباب، نمل، عقارب...وفي زحمة هذه الحيوانات أطلّ "حميد لعْورْ" بنايه القصبيّ ولحيته الخفيفة.

"حميد لعْور" هو معلّمي الأوّل قبل أوفيد وأرسطو وإخوان الصّفا والجاحظ وابن المقفّع وابن طفيل...كانت قصائده وأغانيه العجيبة هي المفاتيح الأولى التي ألقاها بين يديّ قبل أن يذهب..

" يا لغْرابْ برّهْ لمطماطهْ
هاهمْ قالو ثلْجتْ
وحجْرتْها الكحْلهْ بياضتْ
ويا حنظلهْ يا بنت الحنْظلْ
أعْطيني مْرارْتِكْ
راهي مرّارْتي فاضتْ
الدّنيا قدّاش ولّى فيها عجايبْ
الدّجاجهْ ولدتْ
والبهيمهْ باضتْ."

أيّام الطّفولة، كنّا نأخذ شياهنا ونطيش في البراري، نتبع أنغام ناي "حميد لعْور". فنتحلّق حوله، "سيدي حميد" هكذا

كنّا نناديه "أحكيلْنا على الشّريفه".

"الشّريفة" كانت شابّة جميلة ابنة الشّيخ "بولحْناش" الذي يهابه الكبير والصّغير. ولإرضاء أفاعيه وعقاربه كان أهل القرية يملؤون بيته بالقمح والزّيت واللّبن...والذي يعادي بولحناش يموت ملدوغاً. يقال إنّ زوجته ماتت مسمومة بعد سنة واحدة من زواجها منه وتركت له طفلة كالشّمس هي "الشّريفة" ويقال إنّها تملك بعض سحر أبيها، وتخبّئ في صدرها العقارب والعناكب...وهكذا شبّت الفتاة وحيدة منبوذة، لم تصاحبها فتاة ولم يقترب منها أيّ شابّ من القرية، قيل إنّ الذي سيتزوّجها سيموت ملدوغاً ليلة دخلته عليها.

وفي أطراف تلك القرية كان يسكن "الطّاهر الخامج" هكذا كان يناديه الجميع: تعال يا خامج.. اذهب يا خامج.. كان فتى يتيما يعيش في ظلّ جدّته "مباركة المهمومة" التي كانت عجوزاً حمراء دائمة الدّعابة والضّحك، في هذه القرية تكون الكنى متضادّة عادة مع الأسماء، فالذي يكون اسمه "ناجح" سيحمل كنية من قاموس الفشل، والتي اسمها "وفاء" ستحمل كنية من قاموس الخيانة، أمّا الذي يحمل اسما من أسماء الأنبياء والخلفاء الرّاشدين فستلبسه كنية لاذعة منذ اليوم الأوّل لميلاده.

في غابة الكنى والنّفاق هذه، شبّ "الطّاهر الخامج" عاريا، حافيًا...لا شيء يؤنسه غير ابتسامة جدّته، وقمر الصّيف

حين يهبط من سمائه ليستحمّ في البئر المهجورة خلف كوخه النّائي، حين يجلس "الطّاهر" على حافتها، ويصفّر مثل راع مغوليّ تائه أو مثل غراب أعور حطّ على شجرة صبّار في صحراء أريزونا. ثمّ جاء اليوم الذي رحلت فيه جدّته، وجفل قمره واختبأ خلف غيمة من كبريت ودموع، فقرّر أن يحرق كوخه، ويلقي بنفسه في البئر، ويصعد خلف روح جدّته. كان يترنّح على طرف البئر، حين سمع صوتا بعيدًا معجونًا بالريح والصّدى يضحك منه:

" مسكينْ الخامجْ لا نجّمْ يسيرْ
ولا نجّم يقرى المساربْ
لا نجّم يعومْ ولا نجّم يطيرْ
بحْرو ناشخْ وبرْجو خاربْ
يطيّشْ في روحو في البيرْ
ومخلّي كنْزو بين العقاربْ "

لحظتها ارتسمت للطّاهر صورة الشّريفة بعينيها النجلاوين، وهي تغطّي صدرها بشالٍ أزرق تزيّنه أفاع زرقاء، وتطلّ منه آلاف الإبر الصّفراء المسمومة: هل يكون هذا كنزه الذي يقصده صوت الرّيح والصّدى؟ قفز من حافة البئر، وعاد إلى القرية، ليلتها نام بين رماد كوخه، وفي الصّباح قصد بيت "بولحْناش" وطلب يد الشّريفة، وللتوّ وافق شيخ السّموم، قال له: زوّجتك ابنتي. لا مهر ولا صداق. إن خنتها حلّت عليك لعنتي ولن تُشفيك تميمةٌ أو ترْياق وتموت بسمّها،

وإن عفت عليك هي وطلّقتك فسيقتلك الفراق.

عجب أهل القرية مما أقدم عليه "الطّاهر الخامج"، قال الشّيوخ:

– مسكين أصابه خبلٌ من موت جدّته.

وقال الشّباب بغيْظٍ:

– سيصبح مسموما في تابوت، ولن يقدر على لمس خصلة واحدة من شعرها.

أمّا النّسوة فقد اشتعلن بالفضول والشّبق وامتلأت أحلامهنّ بفتيان طائشين يمارسون الجنس مع العقارب. بينما كان الطّاهر في غرفة المسك والشّموع ينزع بتلات الوردة ويمتصّ قطرات النّدى المتلألئة في النّور، ما من عناكب أو عقارب هنا بين تجاويف الصّدر الأبيض، إنّها طيور من اللّذّة ترفرف بين أصابعه، وتملأ رأسه بالحفيف الذّهبيّ، العقارب كانت تلدغ رجال القرية الحاقدين خلف نوافذهم، منتظرين الصّباح الذي سيمشون فيه خلف جنازة الفتى المتهوّر، العقارب كانت تزحف بين أفخاذ نسائهم، وتملأ ليل القرية الحاقدة بالسّمّ.

في الصّباح، خرج العروسان يسيران بين تلال الكروم، وتبعتهما عيون القرية خاسئة مقهورة تشتعل فيها نيران الحقد والفضول. قال الشّيوخ:

– الطّاهر فتىً صالح، يملك كرامات الأولياء الصّالحين.

واكتفى الشّباب بالتّنهّد والصّمت. أمّا النّسوة فقد هرعن

ليتبرّكن بوجْهيْ العروسين. بعد أيّام قليلة، مات الشّيخ "بولحناش" وأخذ مكانه "سيدي الطّاهر" هكذا أصبح الجميع ينادونه هنا في القرية. كلّ من له عقدة يذهب إلى سيّده الطّاهر فيحلّها له، وكل من لم ينلها بعد نصيب في الزّواج تذهب إلى سيّدها الطّاهر فإن لم يزوّجها في الدنيا يعدها بزواج في الآخرة".

* * * *

لا أعرف لماذا بقي صدى هذه الحكاية ينبح في بئر صدري، حتّى أنّني لم أعد أتحمّل فكرة أن أفتح شبّاك امرأة، ولا أجد عقربا يمرح بين نهديها، اختلطت عندي صورة المرأة بالعقرب. قلت ليلةً في حضرة العاهرة العجوز بعد خيبةٍ مخجلة أمام جسد امرأة عارية:

– هذا ما جناه عليّ "حميد لعورْ" وعلى كلّ رفاق الطّفولة الذين كنّا نحلم بالشّريفة وهي تحمل صدّارة الأفاعي والعقارب.

مع الأيّام، بدأت تذوب صورة الشّريفة وبقيت العقارب تزحف تحت سراويلنا، نحن الذين تبعنا أنغام عازف النّاي الأعور، وغرقنا في بحر كلماته الزرقاء:

" حبّيتْ نولّي غزالهْ
خفْت تاكلْني الصّيودهْ
وحبّيت نولّي موزهْ

خفْت تاكلْني القرودهْ
ياخي ولّيتْ بَشَرْ
ونسيتْ الّي باشْ تاكلْني الدّودهْ".

أتراه الآن سيدي حميد يعزف بنايه، أم يا ترى أكلته الدّودة؟.

* * * *

(3)

ليلة أخرى من ديسمبر القاسي أقضيها في العراء، التصقتُ بجذع شجرة دلب عملاقة مثل دبّ الكوالا، ورحت أنفخ بين كفّيّ مثل شحّاذ أفريقي عجوز يعزف على السّكسفون فوق جسر بمدينة أوسلو المثلجة، تذكّرت هذه الصورة من قصيدة لأحد الشعراء الذين ضمتهم أنطلوجيا للشعر النرويجي، وتذكّرت استنتاجه القاسي: إنّه لا يعزف، فقط هو يدفّئ النّحاس. وتمنيّت لو كان بين أصابعي الآن سكسفون، لأملأ الفضاء بالموسيقى الحزينة في هذه الليلة الشتائيّة القارصة في الحديقة الخلفيّة لقرطاج.

هذه حصيلة النّطفة التي بصقها أير الحاج إبراهيم في رحم الصّالحة: كومة لحم منطفئة الحواسّ، يصفعها الرّذاذ تحت جذع مسوّس لشجرة دلب عجوز، لا أعرف ما الذي يمنع الكلاب السّائبة والقطط المشرّدة من نهشها؟.

انتبهْ أيّها العالم الحقير: كومة اللّحم هذه المخلّلة

بالشّجن والدموع هي أنا. هل عرفتني؟ أنا الذي سرقْتَ منه بستان طفولته وابتسامة أمّه الحزينة وتركت له هذا اللّيل والعقارب والأسف والضّياع..

أنت الآن تحتفل مع السّعداء خلف البحار، في الجزر البعيدة والبنايات العالية في البارات التي تشتعل فيها كؤوس الويسكي والشّمبانيا، وفي مخادع الملوك الحارّة من أثر دماء الضّباء. أمّا أنا فغريب ووحيد، كومة لحم باردة وصوت أجشّ كغناء المغول يناديك من آخر اللّيل، هل تسمع؟

أنت الآن تراهن بأوراقك العجيبة على البورصات الرّابحة، وتملأ بطنك بلحوم البرّ والبحر، أمّا أنا فمعدم وجائع وحزينٌ...أشبه صلاة الجنازة. هل تسمعني أيّها العالم الكلب؟

كم تألّمت أنا في حقول الكاكاو لأجل أن تستمتع أنت بالشّوكولا في صباحات الأعياد، كم تمزّقت أنا في الحظائر لأجل أن تسكن أنت الفيلاّت والنّزل الفخمة، كم تسمّمت أنا في المصانع لأجل أن تركب أنت اليخوت والسّيّارات، كم مشيت أنا حافيا في مسارب الشّوك خلف قطعان الماعز لأجل أن تملأ أنت ثلاّجتك بالجبن واللّحم.أعرف أنّك الآن منشغل بشوط بلياردو ضدّ نفسك، ومع كلّ كرة تهمزها بقضيبك لتدخل دبرك، ثمّة آلاف من الرّؤوس التي تُقطع وآلاف القلوب التي تتشرّد عن أوطانها.

وأعرف أنّك لا تسمع أمثالي من الحمقى، لكن لن أكفّ عن رجمك بالصّراخ والحجر.

* * * *

(4)

لم يقطع صراخ أعماقي سوى آذان الفجر: الّله أكبر الله أكبر...الصّلاة خير من النّوم. تسلّلت بصعوبة من تحت جذع الشجرة. الرّذاذ توقّف عن الهطول واكتسح المدينة ضباب شفّاف، كان يبدو مثل ملاك عملاق راح يلطّخ أصابعه بالأضواء ويمسح بها الشّوارع والجدران فيحوّلها مشاهد بيضاء منقّطة بالذّهب، تشبه رسوم "لمين ساسي". كانت عظامي تطقطق مثل سيّارة من الخردة يحاول ميكانيكيّ تشغيلها، وعيناي تنفتحان بصعوبة من قلّة النّوم، أمّا أنفي فلم أجده من شدّة البرد. لا حاجة لي بأنف في هذا الوقت المزكوم. الألم كان يعصرني في معدتي وصدري وحلقي...ربّما مرّ بي شيطان وأنا نائم فوضع حجرا في معدتي وشوكة في حلقي. كنت أبتلع الرّيق بصعوبة وأسعل. تبعتُ شيخين حتّى باب جامع الفتح، حيث كانت تنبعث رائحة دفء راحت تشمّها قطط عارية وجائعة تتثاءب في غرف أعماقي. لا حاجة لي بالصّلاة ولا أتصوّر أنّ خالقي يحتاج صلاة من رجل صدئ عظامه تطقطق من الألم ولم يجد أنفه من البرد. أحتاج سويعات نوم في ركن دافئ يا الله. دخلت الجامع دون وضوء وافتعلت الرّكوع والسّجود والتّمتمة خلف المجموعة القليلة من الذين اختاروا الصّلاة

عن النّوم، في لحظات انهماكهم في الدّعاء تسلّلت على أطراف أصابعي بعد أن قلّبت المكان بعينيّ المرهقتين ولم أجد زاوية يمكنني الاختباء فيها والنّوم بهدوء دون أن يتفطّن إلى وجودي منظّف الجامع الذي بدا لي وهو يرصّف أحذية المصلّين قبل أن يدخل المحراب متثاقلا، كابتا في صدره عمرا من التّثاؤب والنّعاس. غارقا في البيروقراطيّة الدّينيّة. كلّ قسماته العابسة تقول إنّه لن يرحمني، ولن يتردّد لحظة واحدة في مسكي من طرف معطفي الرّث وإلقائي خارج بيت الله. على عتبة الجامع تخيّرت حذاء جديدا، أودعت فيه قدميّ، وغادرت المكان مسرعا، كان الحذاء دافئا فخفّف عنّي قليلا من الألم الذي كان يشدّ عظامي. توجّهت نحو محطّة الميترو في الباساج قاطعا الضّباب، فكّرت أن أركب أوّل ميترو يصل لأرتاح فيه قليلا، وأنعم بلحظات نوم في الدّفء، السّاعة الآن الخامسة تقريبا في شتاء العاصمة، والمحطّة بدأت تدبّ فيها الحياة. انزويت في ركن معتم وحرصت أن لا يكون الحذاء المسروق واضحا، من يدري لعلّ صاحبه يمرّ مصادفة من المحطّة، فيلقي في وجهي قطعة الجلد النّتنة التي كانت تسمّى حذائي ويفضح سرقتي المخجلة أمام بعض المارّة الذين بدؤوا يتحرّكون حول المحطّة. يا للعار! سارق أحذية من بيت الله في صلاة الفجر! ستكون فضيحتي مدوية في الدنيا والآخرة. وبين هواجسي نهض الكلب ضميري نابحا:

– لا يليق بك أن تسرق حذاء الرّجل الطيب الذي سعى إلى ربّه في فجر ديسمبر بحذاء جديد فعاد إلى بيته بقطعة جلد نتنة في قدميه.

أخيرا وصل الميترو وهو يذبح الضّباب بضوئه السّاطع، لو طلبوا منّي لحظتها أن أصف باب العرش لقلت: إنّه يشبه باب ميترو. قفزت بلهفة داخل أوّل عربة تسمّرت أمامي، كأنّ الطّوفان سيغرق المكان بعد دقيقة، وكأنّ الميترو مركب نوح!.

ارتميت على مقعد في أحد أركان العربة، وطويت ساقيّ تحت المقعد حتّى لا يظهر الحذاء المسروق للرّكاب الذين سيجلسون قبالتي. ربّما يكون أحدهم صاحب الحذاء. لم تتركني هواجسي أنعم باسترخائي في مركب نوح، ولم يكفّ ضميري عن النّباح:

– لا طريق يليق بك سوى طريق الجحيم يا سارق الحذاء.

مسحت بلّور النّافذة قبالتي بأصابعي المرتعشة، فظهرت لي البنايات والأشجار ناعسة في الضّباب الشّفيف، وقد بدأ ضوء الصّباح يرفع عنها لحاف الظّلام، فبدّد مشهدها بعض هواجسي، وأحسستُ بخدر خفيف يسري في مفاصلي، ومع تحرّك الميترو أرخيت رأسي على النّافذة وغفوت. لم يكن نوما، إنّما كانت ستائر وسنات ترفعها عنّي بين المحطّات التي يتوقّف فيها الميترو ضوضاء الصّاعدين إليه والنّازلين

منه.

أخيرا فتحت عينيّ وانتبهت: المركبة كانت مختنقة بالرّكّاب ورائحة أنفاسهم تملأ صدري. عاد لي أنفي إذن! ربّما مرّ بي "جياكوميتي" فأحزنه حالي وأنا نائم في ميترو لا أعرف له وجهة بلا أنف، فوضع عجينة صغيرة من صلصال خياله فوق فمي وذهبَ.

– شكرا جزيلا حبيبي جياكوميتي.

شعرت برغبة في وضع سبّابتي في منخري مثلما أفعل حين تتاح لي لحظات وحدة في المدينة، حيث أدير سبّابتي ببطء مثل أصلة صغيرة وأستخرج قطعا لينة تشبه العلكة الصّفراء وألصقها تحت الأسرّة والكراسي وعلى الدرابزين وجذوع الأشجار...حركة مثل هذه لا أتصوّر أنّ إنسانا في هذا الكون لم يجرّبها، هي حركة قرديّة أصيلة كأغلب الحركات العفويّة التي نفعلها براحة وغبطة حين نكون بعيدين عن عيون أشباهنا، هي رسائل بسيطة وعميقة بين الأعضاء السّرية للجسد (الإبط، العانة، الدبر، الخصيتان...) وسيّد العطور "الأنف" أما ساعي البريد فتكون الأصابع. إنّها رائحة الطّبيعة البشريّة نشمّها فنحسّ بوجودنا.

سيّداتي، سادتي:

شمّوا أعضاءكم، واملؤوا صدوركم بروائحها، هكذا تحرّرون أجسادكم، وتقتربون من رائحة أصلكم.

قلت في نفسي ضاحكا:

– تصلح هذه أن تكون مقدّمة لخطاب قرد سياسيّ في منبر!. هههه

مددت أصابعي، ومسحت بلّور النّافذة، ونظرت من خلالها: الضّباب انقشع والشّمس بدأت ترسل خيوطها البرتقاليّة بين مكعّبات الإسمنت العملاقة وبينها لمحت مئذنة جامع الفتح، أدركت أنّ الميترو أكمل دورته التي لم أعرفها. المهمّ أنه الآن عاد إلى محطة الباساج. الرّكاب بدؤوا يقتربون من الأبواب، ويتهيّئون للنّزول، أغلبهم عملة وطلبة وصغار موظّفين...بعد نصف ساعة سينتشرون بين ورشاتهم ومصانعهم ومدارسهم في العاصمة. هذه رياضتهم اليوميّة. العاصمة امتصّتهم وهم نهشوا أعماقها كعلقات المجاري. توقّف الميترو أخيرا، انفتحت أبوابه، واندفعت أفواج البشر التي كانت داخله كقطعان النّو الهائجة في سهول إفريقيا الشاسعة وهي تعبر النّهر الذي يفصلها عن الكلإ، وعلى أبواب المحطّة تسمّر رجال الشّرطة بعيونهم الحادّة كعيون التّماسيح، كلّما وقعت نظراتهم على عجل مرتبك تنغرس فيه أسنانهم الحادّة: بطاقة تعريفك، أين تعمل؟ أين تسكن؟ ماذا تخفي وراءك؟

البلاد كانت تتهيّأ لانتخابات جديدة في السّنة التّاسعة من الألفيّة الثّالثة، ولا يريد النّظام أن يشتعل عود ثقاب واحد في أيّ مطبخ في البلاد، دون علم البوليس السّياسي والثّقافي والبوليس السّياحي والفلاحي والتّجاري...الخ. لا حدّ لنظام

البولسة في هذه الضّيعة الرأسماليّة الصّغيرة التي تسمّى تونس.

اندسسْتُ بين قطيع النّو، وخفضت بصري متحاشيا النّظر في عيون التّماسيح، حتّى صعدت درجات المحطّة.

مسكتني من أنفي الجياكوميتي رائحة خبز ساخن، فتبعتها حتّى أوصلتني إلى عربة رجل عجوز يقشّر بيضا ويحشو قطع خبز بالزّبدة والجبن ومعجون الفواكه..

– صباح الخير عمّي

– صباح الخير، تفضّل

– أنا جائع يا عم وليس عندي مال

– يا فتّاح يا رزّاق...عند عمّك الصّادق يأكل من معه مال، ويأكل المفلس. خذ يا ابني.

ناولني سندويتشا وبيضة مسلوقة

– رحم الله والديك

وأنا ابتعد بضع خطوات عن عربة عمّ الصّادق، استمعت إلى أحد حرفائه يعلّق:

– كثر المتسوّلون في تونس

– الناس تعاني والظّروف قاسية

– كم أنت طيّب يا عم، ألم تنظر إلى حذائه الذي يساوي عربتك بما فيها

– ربّي يهدي عباده يا ولدي

أحسست بالإهانة من كلام الرّجل، لكن لا بأس، فقد

أهداني فكرة لا تخطر على بال عبقر. سوف أبيع الحذاء وأشتري بنصف ثمنه حذاء آخر، فأوفّر ثمن أربع قوارير بيرة، وأرتاح نهائيّا من هواجس الحذاء المسروق.

ألقيت السندويتش والبيضة في آلة الهضم التي بدأت تشتغل داخلي، ثمّ قصدت أوّل إسكافي اعترضني في طريقي إلى شارع بورقيبة. كان كهلا أسمر، انتصب تحت جذع شجرة عجوز، ورصّف حوله مجموعة أحذية عتيقة. كان منهمكا في مسح حذاء شابّ أنيق جلس قبالته على كرسيّ ومدّ له قدميه، بينما انهمك في قراءة صحيفة. انتظرتُ قليلا حتّى أكمل الإسكافي عمله مع الشّاب، وألقيت عليه تحيّة الصّباح، فردّ التّحيّة دون أن يرفع نظره عن حذائي:

– اجلسْ "خويا" تريد أن تلمّع حذاءك؟

– بل أريد أن أبيعه

وبحركة مفاجئة، رفع رأسه ونظر في عينيّ:

– تبيعه!؟ وهل تظلّ حافيا؟

– سنتّفق. سآخذ بدله حذاء آخر، وتدفع لي عشرة دنانير. الحذاء جديد لكنّي مضطرّ لبيعه، لقد سرقوا لي حافظة نقودي، ولم يبق لي مال. وأنا عالق في العاصمة.

أعاد الإسكافيّ النّظر إلى الحذاء، ثمّ تكلّم بلهجة فيها أسف متكلّف:

– والله لو كان عندي المبلغ الذي طلبته لأعطيتك إيّاه دون أن آخذ منك حذاءك. لكن أنت تعرف "خويا" اللّقمة

نلتقطها من أحذية النّاس بالجهد الجهيد.

– أعانك الله. سأذهب إلى غيرك

وما كدت أبتعد عنه خطوتين، حتّى استوقفني:

– اسمع. ما رأيك بخمسة دنانير، والله هي رأس المال هذا الصّباح، لكنّك طيّب وتستحقّ المساعدة.

أدركت أنّ الرّجل كاذب، وأنا أستدير إليه:

– اسمع صديقي. هات لي ثمانية دنانير ثمن تذكرتي إلى وجهتي الآن، ثمّ اعطني أيّة خرقة ألبسها، ولك الحذاء.

أدخل يده في درج صندوق عتيق جنبه، وسلّمني الدّنانير، بينما كنت أنا أخلع الحذاء المسروق، وأتخيّر حذاء من بين الأحذية المرصوفة حوله. هذا الإسكافيّ الكاذب، منذ قليل كان يقسم بالجلالة أنّ رأس ماله لا يتجاوز الخمسة دنانير، والآن يفتح صندوقا مليئا بالدّنانير. أنا كذلك مثله كاذب وسارق أيضا!.

استفاق مرّة أخرى ضميري الكلب، وآلمني نباحه المرّ، فكان لا بدّ من تخديره بأربع قوارير خضراء في حضرة المحارب الحزين!

* * * *

(5)

في الحديقة الخلفيّة لقرطاج تسكّعت طويلا، تدفّأت بالنّجوم في ليالي ديسمبر، رافقت العواهر وبكيت بين

الفروج الحزينة، أكلت من صناديق القمامة، ركبت ميتروهات خضراء وحافلات صفراء ولم أقتطع تذكرة واحدة حتّى أنّ كلّ قاطعي التّذاكر حفظوا اسمي ورقم بطاقتي التي ترفرف فيها سبع حمامات، دخلت جوامع دون وضوء وانسحبت قبل ختم الصّلاة لأظفر بحذاء جديد من بين مئات الأحذية التي تنتظر أصحابها الخاشعين خلف رجل يغتاب الكفّار في مصدح صنعه الكفّار...

ذات يوم مفلس، دخلت بار قاريبالدي فشربتُ البيرّة ولم أدفع، وحين تعلّق بعنقي النّادل العجوز تدخّل صاحب البار واقتادني إلى دورة المياه لأنظّفها مقابل ما شربت:

– نظّفْها جيّدا نظّفَ اللّهُ عرضك.

ربّما كان يقصد أنّ عرضي لم يكن نظيفاً؟ تملّكني يومها غضب أزرق، تمنّيت لو أمسك النّادل العجوز من عنقه بقبضتي وأمسك عرفه بقبضة أخرى، وأُلقي بهما في أوّل صندوق قمامة يعترضني، وأوزّع بعدها البيرّة مجاناً على الشّعب. ولم أجد ما أطفئ به غضبي سوى الانهماك في تنظيف المبولات الصّفراء والأحواض المختنقة بالقيء والبصاق، حتّى أنّ صاحب البار لمّا تفقّد عملي، أطلق تصفيرة طويلة إعجابا "يعطيك الصحّه" ما رأيك لو تشتغل هنا؟ سأعطيك أجرا ومأوى، ما رأيك؟ وفورا قبلتُ، أصبح لي عمل ومأوى في الحديقة الخلفيّة لقرطاج، أبدأ العمل من منتصف النّهار وأنهيه بعد منتصف اللّيل، أحمل سطلا

وخرقةً، وأظلّ أركض بين دورات المياه، أنظّف المبولات والأحواض. كان هذا عملي. الجميع في البار كانوا ينادونني "صابونه" تعال يا صابونه اذهب يا صابونه..

من الفظيع حقّا أن تنتهي صابونةً في دورة مياه لبار شعبيّ حزين، تُطهّر أيادي السّكارى ومؤخّراتهم وتنزلق بين الأحواض والمبولات لأجل إقامة في مستودع تستعمره الجرذان والعناكب بين صناديق البيرة والمرناق، ولأجل لقمة باردة ومعلّبة لا تشمّ فيها رائحة النّار، تمضغها في زاويتك وتختبئ تحت "بطانيّة" سوداء مضغت حواشيها الجرذان.

* * * *

(6)

لم أنفكّ عن زيارة "أبي خلف"، والوقوف أمام قفصه، ورجمه بالشتائم:

– أيها القرد اللّعين، أنت المسؤول عن اختفاء حبيبتي.

ويظلّ القرد واجماً، يتأمّلني بعينيه الحمراوين. لماذا أنت صامت مثل الكارثة؟ تكلّم. أعرف أنّك تجيد النّطق لكنك تتصنّع الخرس. إن شئت اكتب لي إجابتك على قشرة موزٍ. خذ هذه الموزةَ...

يلتقطها، ويقشّرها بحرفيّة عاليةٍ، ويظلّ صامتاً وهو يمضغ الموز بفمه الذي يشبه حذاء الكاوتشوه.

– لم أنت وحيد بلا رفيقة من بين جميع حيوانات

الحديقة أيها البونوبو؟

يصمت القردُ، ويتكلّم الحزنُ في عينيه ليقول قصائد كئيبة مثل خناجر الجليد، قصائد عن غابات اللّيل والنجوم البعيدة الباردة والقسوة واليتم وصراخ الضّباع وشمس السافانا الحمراء ومخالب السباع المطليّة بدم الأبقار والغزلان....

يجيبني أحد العملة عن سؤالي: لم يظلّ هذا القرد وحيدا في قفصه، على الأقلّ تستقدمون له أنثى تؤنسه؟ فيقول: إنّ هذه الأنواع من القردة تتشابه كثيرا مع الإنسان، وهي تضاجع إناثها تماماً كما يفعل البشر، وهذا يسبّب حرجاً لزوّار الحديقة، ويخدش حياءهم.

يلعن الأعراب الهمّج الذين خرّبوا الشّرق وحوّلوه سجناً كبيرا بعقدهم وأمراضهم، فهم لا ينفكّون يؤذون أنفسهم ويؤذون غيرهم من الكائنات. ما معنى أنهم يبيحون مشهد قتلٍ يمرّ في محامل حياتهم اليومية ويحرّمون مشهدَ حبّ لحيوانٍ؟ أليس في الأمر مدعاة للسخريّة والحزن في آنٍ واحد؟ لا حرج في مشهد يفتح على العدم، لكن لا مجال لمشهد يفتح على الحياة.

كلانا غريب أيها البونوبو في برّ الأعراب. لا أهل ولا حبيبة. كلانا رهينة في قفصٍ، يؤدّي دوره الهامشيّ صامتاً مقابل بقايا طعامٍ رديء.

* * * *

(7)

ثمّة قطرات ماء خرجت من محطّة التّطهير، وتسلّلت إلى العنقود المعلّق في الدّالية العجوز قبل أن تسحقها الأقدام في المعاصر، وتُصبّ في زجاجة ثمّ تدور بين الشّفاه في بار قاريبالدي، وتنسرب في البطون ثمّ إلى المبولات قبل أن تُكمل دورتها إلى محطّة التّطهير...في أقذر مكان من هذه الدّورة كنت أقف كلّ يوم بسطل وخرقة وابتسامة شاحبة أوزّعها بين الوجوه والمؤخّرات، صرت مطبّعا مع القذارة والصراصير والشّذوذ.. لم أعد أندهش من رجل رخو يغمز لي بعينه، وهو يربّت على مؤخّرته ويدخل إلى التّواليت.

بربّكم أجيبوني: هل رأيتم يوما قردا يراودُ قردا آخر عن نفسه؟ ما أغرب حقّا سلوك البشر. فلم يضحك منّي الجميع حين أُخبرهم أنّني قرد؟ كلّ الذين أخبرتهم أنّني قرد لم يجد شجرته بعد لم يصدّقوني. فقط رجل واحد كان يزور بار قاريبالدي في مساءات الشّتاء، فيجلس جنب النّافذة، وينكبّ على الكتابة وتقبيل الكؤوس هكذا كان يعلّمني احتساء البيرّة: "لا تشرب مثل الأحمرة يا فتى، فقط قبّلْ الكأس، البيرّة مثل المرأة لا تحبّ سوى العشّاق النّبلاء".

كان الرّجل يكتب أشياء غامضة هي مزيج بين شعر وفلسفة لكنّها ليست شعراً وليست فلسفةً. كنت أندهش ممّا يكتبه رغم أنّني لا أفهم معانيها، بل أن سرّها كان في عدم فهمها .كانت تكفيني الدّهشة فقط.

كنت أسرق الدقائق من العمل لأجالسه وأشرب كأسا على عجل، وأقرأ عليه ما أخربشه في مستودع الجرذان والعناكب: "أستاذ زاهي"، هذه قصّة جديدة. يقرؤها باندهاش أو ربّما كان يفتعل الدّهشة لتحفيزي على الكتابة، كنت أقول له إنّني أكتب بمخيّلة قرد يبحث عن شجرته، وكنت أنثر هبلي في قصص أبطالها قردةٌ وتمتزج أدوارهم مع أدوار بشر.

قصصي كانت بين نظريّة النّشوء والتّطوّر لداروين ونظريّة المسخ والعودة إلى البدائيات لجدّتي"بيّه". تستطيع القول إنّها روح المادّة في جسد الميتافيزيقا.

مخطوطة "القرد"

ملاحظة

إنّ قصص هذا الكتاب كلّها تناسلت من قصّة عجيبة قرأتها في رسائل "إخوان الصّفا"، يتحدّثون فيها عن أهل جزيرة ركب بعضهم البحر، ثمّ تعرّضوا لعاصفة عاتية ألقت بهم على ضفاف جزيرة تسكنها القردة، فعاشروها، ونكحوا إناثها وولدن منهم.

(1)
قصّة:روح حبيبي

أنا قرد من قرية هنديّة، أعيش مع عائلتي في معبد يحرسه رجال حليقو الرّؤوس يلتحفون ملاءات برتقاليّة وينظرون نحو السّماء طويلا، كانوا يعاملوننا بحبّ، يعتنون بمرضانا، ويطعموننا الخبز والفواكه. كنت في أواخر الكهولة وقد خسرت قيادتي في العائلة بعد أن صرعني ابني الشّاب أمام زوجاتي، واصطففن خلفه اللّعينات، لذلك انعزلت في ركن بعيد، سكنت شجرة هرمة عند أطراف القرية وكنت أتردّد أحيانا على المعبد لألتقط بقايا الفواكه، وأشرب من حوض قبالة المعبد تكسوه الأزهار الحمراء، وتتحلّق حوله النّساء والطّيور والجواميس..، كنت مطمئنّا في مسكني الجديد، لكن مع الأيّام تسلّل إلى قلبي السّأمُ، فثقلت خطواتي وصرت أطيل النّظر إلى الشّمس ساعة غروبها، وأتحاشى نظرات القرَدة والنّاس. نسجت حولي العزْلة شرنقةً من الظّلّ والسّأم والنّسيان.. حتّى انفتح لي يوما شبّاك صغير قبالة شجرتي، كانت تطلّ منه فتاة خجول، وتلقي إليّ أزهاراً حمراءَ هامسة بكلمات يقطّعها نشيج صامتٌ. استأنسْتُ بالفتاة وصرت أقفز إلى شبّاكها فتطعمني الفواكه والبسكويت،

ثمّ اقتربت منّي أكثر، وصارت تمسح على رأسي بأصابعها المحنّاة، وتطيل النّظر في عينيّ وتقول باكيةً:

– كيف ذهبت وتركتني وحيدةً في هذه الدّنيا؟ يوم احْترق جسدُك كنت أعرف أنّ روحَك ستحلّ في جسد طائرٍ أو قطّ أو غزالٍ...وستأتيني إلى نافذتي، لكنّك راوغت حدسي وسكنت جسدَ قردٍ. أنت لم تكن تحبّ القِردة، هل تذكر أيّام كنّا نترافق إلى المعبد وحين نخْتبئ لحظات بين أشجار الطّريق لنخْلقَ من رغْوة فميْنا قبْلةً لا يراها النّاس، كان كلّما فاجأنا قردٌ، تثور وتلعن أجدادَه، وكنت أحاول أن أغلق فمك. ههه. هل تذكر؟

ها إنّك تحوّلت قردا يلعن العشّاق أجدادَه. مسكين حبيبي.

كنت أسمع كلامها بحُزنٍ ولا أجيب، المسكينة شأنها شأن كلّ البشر إخوتنا الذين فقدوا ذيولهم في رحلتهم من الغابة إلى المدينة، إنّهم يفقدون أحبابهم في المجاعات والحروب وحوادث السّير...فيحرقون أجسادهم أو يُوارونها التّراب، ويبحثون عن أرواحهم في أجسادنا أو في السّماء. المسكينة تضمّ قارورة رماد وتتأمّلني بحبّ، إنّها تتمزّق بين ماضٍ ووهْمٍ.

كانت الفتاة تطعمني الفواكه وتسقيني بيديها وتنثر عليّ الأزهار وترشّني بالعطر، حتّى استأنست بها، وأصبحت أقاسمها الفراش والدّوش، فكانت تقبّلني وتتحسّس أعضائي وتتأوّه

نشوة:

– آه يا حبيبي.

ذات فجر، تقرْفصت على سجّاد أخضر وقد التحفت بملاءة حمراء، وضمّت إلى صدرها قارورة رماد حبيبها، وأشعلت حولها الشّموع.كانت تتمتم وهي تتأمّل السّقف بعينين دامعتين، اقتربتُ منها ومسكت طرف جديلتها السّوداء الطّويلة، فنظرت إليّ هامسة:

– سألتحق بك حبيبي.

أخرجت من ثوبها كيسا صغيرا فيه مسحوق أبيض ذوّبتْه في كأس ماء ورفعتْه بيد مرتعشة إلى فمها، ودون تردّد شربته بلهفة، ونامت.

لم يمرّ ذلك اليوم حتّى كانت الفتاة حطباً لنار زرقاء تحلّق حولها بشر دامعون، وانتهت قارورة رماد في ركن غرفتها. ليلتها نمت على شجرتي بعد أن أُغلقت في وجهي النافذة الوحيدة في العالم، كنت أتأمّل نجمة حزينة حين اقتربت منّي قرْدة شابّة جميلة، وبدأت تتمسّح بي وتفلي شعري من القمل. هل تكون هذه روح الفتاة حلّت في جسد القردة؟ وهل أكون أنا روح حبيبها حلّت في جسد القرد الذي هو أنا الآن؟.

نظرتُ في عينيْ رفيقتي الجديدة، ثمّ نظرتُ إلى النّافذة الصّغيرة الموصدة. كنت متمزّقا بين ماضٍ ووهمٍ، وكنت مرهقا غير قادر على حلّ شفرة واحدة من الشّفرات المعقّدة

بين روحين، كم مسلكا بين الأرض والسّماء عليّ أن أسلكه لأصل في النّهاية إلى فاكهة مسمومة كلّ قضمة منها هي خطوة في أرض الشّقاء والمنفى. اليوم سأقضم فاكهتي بلذّة، وغدا سوف أمشي بين القرَدة ببطن منتفخة وبرازي يسيل. غير أنّني وضعت يدي اليسرى على مؤخّرتي، وباليد اليمنى قطفت فاكهتي.

(2)

قصّة الحديقة الوطنيّة للحيوانات

أنهى "لمين" دراسته أخيرا بعد عشرين سنة من الأرق والقلق وآلام الرّأس...خبّأ شهادته الجامعيّة في صندوق عتيق بين أرشيف العائلة بعد أن أوصى الأرضة أن تحرسها من التّلف، ثمّ تفرّغ للأصحاب في مقهى الحيّ، دون أن ينسى تفقّد مكتب الشّغل من حين إلى آخر، حتى قرأ مرّة إعلانا لانتداب مفتّشي شرطة، فأسرع إلى صندوق العائلة، وأخذ شهادته وطار إلى مكتب الشّغل. قدّم ملفّه كاملا مرفقا بمطلب إلى وزير الدّاخلية:السّيد وزير الداخليّة، تحيّة احترام وتقدير وإجلال ومعزّة ومودّة ومحبّة خالصة لا تشوبها شائبة، أنا المواطن "لمين" صاحب ب ت ت ق عدد"....." الممضي أسفل السّافلين، أقدّم لكم مطلبي في العمل داخل حظيرتكم الموقّرة بإخلاص كلب، راجيا منكم قبول مطلبنا هذا بقليل من اهتمامكم العظيم بمصلحة الوطن المفدّى. عاشت وزارة الدّاخلية وعاش الوطن حرّا في ظلّها. وظلّ "لمين" يتصوّر أنّ مطلبه هذا هو المساهم في انتدابه ضابط تفتيش. يتذكّر جيّدا اليوم الذي قرأ فيه اسمه في قائمة

المنتدبين، يومها صنع من الفرح جناحين وطار إلى أمّه التي ملأت الحيّ بالزّغاريد، ولم يمرّ ذلك المساء حتّى سمعت القرية كلّها بخبر انتدابه في إدارة "الحاكم"، وبعد أسابيع قليلة خطب إحدى بنات القرية من بنات الحسب والنّسب، ثمّ أودع جزءا من مستقبله في بنك ودخل القفص الذهبيّ.

قال له رئيسه في العمل بعد تهنئته:

– ستدخل قفصين معا.

لم يفهم "لمين" ما يعنيه الملازم الكهل حين اقتاده إلى مكتب منعزل:

– اسمعْ، أمامك مهمّة خطيرة عليك أن تنجزها بدقّة وفي كنف السّرية.

– أيّة مهمّة حضرة الملازم؟

– ستلبس جلد قرد، وتدخل قفصا في الحديقة الوطنيّة للحيوانات.

– حاضر سيّدي، وما هي المهمّة؟

– ستدخل القفص من السّابعة صباحا إلى السّابعة مساء، وتكتب تقريرك حول كلّ زائري الحديقة. الأمر خطير.

– لكن سيّدي؟

هي تعليمات من "فوق" قالها وهو يرفع إصبعه . طبّقْ واصمتْ.

ومن الغد كان "لمين" يدور في قفص بجلد قرد، يقذفه البشر بالفواكه والضّحكات. نصف يوم وهو يمضغ الضّجر،

ويدور في قفص من أجل تعليمات من فوق. أيّ فوق؟ ومن أيّة سماء نزلت هذه القطرات الباردة"طبّق واصمت" "يلعن أبا الوظيفة" عصابة رجال مرضى بكلّ أمراض الخليقة يضعون نجوما مزيّفة على أكتافهم يلعبون بحياتك يا لمين ويمرّرون أيّامها بين أصابعهم يوما..يوما..

اثنتا عشرة ساعة يقضيها "لمين" في قفص القرد يتفرّس وجوه زائريه السّاخرين من حركاته، ويسجّل ملاحظاته في كنّش يحتفظ به في بيت خشبي صغير مع فطور الغداء وقارورة ماء وقهوة. حين تفرغ الحديقة الوطنيّة للحيوانات من زائريها كان ينزع جلد القرد، ويأخذ طريق عودته إلى بيته بزيّ الشّرطيّ، يحيّيه الأصدقاء بتملّق واضح، ويوشوش حوله النّاس بإشارات خفيّة "إنّه حاكم". فيقهقه في أعماقه مخلوق ساخر مثل رسوم "خوان ميرو" هاهاها حاكم الموز. حين يصل بيته، ترفرف حوله زوجته بفرح وحبّ وتهيّء له سلسلة من الخدمات السّحريّة: الدّوش، المنشفة النّظيفة والنّاعمة، صابون بعطر الياسمين، الأكل الطّيب ثمّ المضجع المعطّر تحت النّور الزّهريّ وتقوده بتلك السّلسلة إلى فردوس صغير لا يُخرجه منه سوى شيطان السّاعة السّادسة صباحا الذي يغرس مذراته في مؤخّرته ويلقي به في قفص القرد، وهكذا تمرّ أيّامه. تسأله زوجته دائما عن عمله، فيفتعل لها أحداثا خياليّة مسروقة من فلم أكشن. مع الأيّام أصبح الأمر مملاّ ومضجراً إلى حدّ لا يطاق، تسأله زوجته فيصفعها عبوسه

وصمته. تراكم ثلج أسود في حياته، وتحوّل فردوسه الصّغير أرضا معزولة يعيش فيها مع امرأة لا تكفّ عن الشّكوى وشدّ فرجها من ألم العادة الشّهريّة، حتّى أبسط الخدمات لم تعد متوفّرة له الآن، الأكل بارد من الثّلاجة كطعام الموتى، مناشف الدوش قذرة، ومضجعهما تملؤه روائح أنفاسهما الثّقيلة. تسلّلت الرّطوبة إلى زوايا حياته، وتشابكت فيها العناكب. فكّر مرّة وهو يخرج من قفص عمله باقتناء تذكرتين للتّنزّه في الحديقة الوطنيّة للحيوانات. غدا سوف يتفرّغ لزوجته ويأخذها خارج البيت، ويجدّد ماء حياته ولو قليلا. تجديفة صغيرة في البركة، لكن لابأس بها.

في البيت فرحت زوجته كثيرا بالفكرة، رفعت يديْها عن فرجها، وأعادت إليه بعضا من خدمات الفراديس. لكن هاتفا من مديره الملازم الكهل حطّم كلّ جرار العسل:

– آلو لمين. غدا لا بدّ أن تكون في العمل. الأمر خطير. طبّق واصمت.

وفي الصّباح كان "لمين" يدور في قفصه، كلّ حقد العالم وغضبه اجتمع في صدره، هو الآن عاصفة تلبس جلد قرد، كان اليوم هو يوم عطلة في البلاد، لذلك توافد على الحديقة الوطنيّة للحيوانات كثير من البشر. كثير من الوجوه التي يعرفها مرّت أمام قفصه واستمتعتْ بتأمّله. أصدقاء وأعداء. ثمّ مرّت الصّدمة: امرأة فردوسه الصّغير، تمسك بيد شابّ غريب وتضحك. وقفا أمام قفصه، وتبادلا نظرات الحبّ.

أحسّ "لمين" أنّ شياطين تحتلّه الآن، وتفرغ دمه في آنية من نحاس وتضعها على نار زرقاء. كان دمه يغلي والشّياطين تتذوّقه بملاعق سوداء ثمّ تبصقه على وجهه: تذوّق دمك حتّى تتأكّد أنّك بشر حيّ، بسلامة التّعليمات الفوقيّة تخونك زوجتك أمامك ولا تحرّك ساكناً. يا للسخريّة. يا للعار.

انسحب "لمين" قليلا إلى الوراء حيث المنفذ السّريّ الذي يدخل منه إلى القفص، والذي يفضي إلى الممرّ الذي يتمشّى منه زوّار الحديقة، وكأصَلَةٍ حدّدت نقطة النّبض في فريستها انقضّ على عنق زوجته بين صراخ النّاس وهلعهم. ومن الغد نشرت الصّحف المحلّية خبر مهاجمة قرد لامرأة وقتلها. عوقب مسؤول الحديقة بشهرين سجنا في فندق ساحليّ، وتمّ احتواء الحادثة بعد أن نُسبت الجريمة إلى قرد، و تمّ نقل "لمين" إلى مهام أخرى.

(3)

قصّة مربّع السّعادة

"خلف كلّ رجل عظيم امرأة
وخلف كلّ رجل تافه امرأة
والسّرّ يا عبد الحياة مدفون في كهف الحياة
– وما هو كهف الحياة يا سيدي حميد؟
– هو كهف يَلِجه الرّجل شابّا أو كهلا أو شيخاً فيخرج منه طفلا."

من وحي حكمة "حميد لعْور" هذه، كتبت قصّتي:

سئم "سعيد" حارس الحديقة الوطنيّة للحيوانات حياته، فاقترح عليه قرد أن يتبادلا دوريهما في الحياة، وللتّوّ وافق سعيد، فدخل القفص ونطّ على الأخشاب ضاحكًا، وتلقّف الموز من أيادي البشر المتحلّقين حول قفصه، أمّا القرد فقد لبس ثياب سعيد، وسار إلى بيته، فطرق الباب كما يفعل سعيد، وصرخ في وجه المرأة الحزينة التي فتحت له الباب، وكما يفعل سعيد ارتمى على الفوتاي القديم في صحن البيت وغمس ساقيه في آنية الماء الفاتر التي أحضرتها له زوجته وانحنت لتدلك ساقيه برفق وتمرّر قطعة الصّابون بين

أصابعهما ثمّ تنشّفهما، وترفع الآنية دون أن تتكلّم. وكما يفعل سعيد دَلَك إبطيه ودبره بالمسك، ومسك مسبحة وراح يمرّر حبّاتها بين أصابعه ويستغفر اللّه، ولا يقطع تمتماته إلاّ ليصرخ في وجه زوجته تماما كما يفعل سعيد. رغم أنّ القرد أخذته الشّفقة بالمرأة المسكينة، لكن عليه إتقان دوره حتّى لا يُفتضح أمره. بعد العشاء قال لزوجة سعيد:

– اذهبي واغتسلي من رائحة المطبخ.

رأى غيمة من الدّهشة على وجه المرأة المرهقة، فخاف للحظة أن يكتشف أمره لكنّ المرأة نفّذت طلبه، وأضافت عطرا خفيفا على الثّوب الأزرق الشّفّاف الذي كان يُظهر ما بقي من تاريخ شبابها: ثديْن حزينيْن كثمرتيْ تين مجفّفتيْن وبطناً مترهّلة كبطن أخطبوط. لكنّ القرد خانتْه حيوانيّته لحظة إطفاء المرأة للأضواء، وخلاف ما يفعل سعيد زحف على الجسد المهجور بصدره المكسوّ بالشّعر ولعق مسامّه، فتحرّرت من أعماق المرأة آهات النّشوة، وهمست في أذن الحيوان: "من أين لك هذا الشّباب يا حبيبي؟".

قضّى القرد تلك اللّيلة يطيّر حمامات النّشوة المسجونة في قفص المرأة، حتّى طلع الفجرُ فتوضّأ وصلّى وأيقظ زوجته المضطجعة في مربّع السّعادة، نهضت المرأة بخفّة فراشة، وقدّمت البسكويت والقهوة للقرد بحبّ فائض، وأمطرتْه أدعية وهو يغادر البيت إلى عمله، ولم تستطع المرأة إخفاء سعادتها بليلة الشّباب المستعاد عن جاراتها فطرقت

أبواب بيوتهنّ باباً باباً وسردت عليهنّ الأمر. بعضهنّ كذّبنها والبعض الآخر صدّقنها بنظرات ممزوجة فضولا وحسدا.

من بين المكذّبات تجرّأت إحداهنّ وكانت أرملة تتلهّف لقطرة حبّ واحدة تسقط من دلوٍ مثقوب على مغازلة سعيد واستدراجه إلى فراشها، وهناك اكتشفت نهرا عظيما يخبّئه الرّجل في سرواله، فشاعت معجزات الرّجل بين النّساء: القحاب منهنّ زحفن إليه واضطجعن على ضفاف نهره العظيم كإناث التّماسيح، وعبّأن جيوبه بالأوراق النقديّة بقدر ما عبّأ هو فراغهنّ بالموز الطّازج. أمّا الشّريفات منهنّ فقد شجّعن أزواجهنّ على مصاحبته أملاً منهنّ في تحفيز ما نضب من ينابيع الرّجال المرهقين. أصبح القرد "سي سعيد" أحد أعيان المدينة وزعيمها الرّمزيّ، حتّى أنّه تقدّم للانتخابات البرلمانيّة وافتكّ مقعدا في قاعة البرلمان. أصبح القرد يهدر في الشّأن العام البشريّ، فيقرّر مصائر بشرٍ، ويتوسّط لبعضهم مع إدارات الدّولة للعمل أو للسّفر. وتذكّر القرد مرّة صديقه حارس الحديقة فذهب إلى زيارته، لكنه لم يجده. فسأل عنه، فقيل له إنّه أعيد إلى غابته في أدغال أفريقيا بعد أن هرمَ.

عاد نائب الشّعب إلى بيته مهموماً، وقد أحسّ أنّه تورّط في دور الإنسان، وانتبه أخيرًا أنّ الرّجل احتال عليه، ولا شكّ أنّه يضحك منه الآن على شجرة موز.

(4)

قصّة: وطن الغوريلا

هي قصة عن عالم كنديّ اسمه "جو" ذهب إلى أعماق إفريقيا مع فريق من الباحثين والمصوّرين، في الغابات التي يشقّها نهر الكونغو العظيم هاجمتهم عصابة من المسلّحين وأسرتهم، ولم ينج منهم سوى بطل هذه القصّة "جو".

يتحدّث عن قصّته يقول:

كما يشبه أزيز ماكنة الحصاد مرّت رحلتنا بين مطارات مونتريال وباريس وكنشاسا، قبل أن نجد أنفسنا في هذه الطّريق التّرابيّة الحمراء في إحدى الغابات التي تحيط بنهر الكونغو، كنّا متحمّسين وسط العراء والضّوء حتّى هاجمتنا عصابة من المسلّحين وأسرت الجميع عداي أنا . أنا "جو". يجدر بي بعد هذه الحادثة أن أسمّي نفسي المحظوظ "جو" كنت في السّيّارة الأخيرة من قافلة السّيارات الأربع لفريقنا المكوّن من مجموعة باحثين ومصوّرين وعملة وسائقين أفارقة، لحظة مهاجمتنا من عصابة ملثّمة خرجت من بين الأشجار وصوّبت نحونا بنادقها، فرمل بنا السّائق عند منحدر، ودخلت السّيّارة تحت شجرة أكاسيا، لحظتها

فتحت باب السّيّارة واندفعت بين الأشجار العملاقة، ولم تنتبه العصابة لفراري، إبتلعتني الظّلال، وتركت رفاقي للمجهول. ركضت ساعات طويلة حتّى جفّ ريقي وكبّلتني مذراة باردة أنشبها الإعياء بين ضلوعي، ومرّغني بين الأعشاب الجافّة، وطبخني في إناء من لهاث ورجاء.

ومخافة السّباع والضّواري اخترت شجرة عظيمة، واختبأت بين تجاويف جذعها بعد أن حفرت ما يشبه عشّ نقّار الخشب، وكنت أحمل مسدّسي الشّخصيّ، فاطمأننت قليلا، لكني اكتشفت فيما بعد أنّ المكان الذي اختبأت فيه كان موطنا لعائلة من الغوريلاّ، وبما أنّني عالم أحياء، فقد كنت أدرك تماما قوانينها الاجتماعيّة، فهي عادة ما تكون مكوّنة من زعيم مسيطر ومجموعة إناث هنّ زوجاته ومجموعة مراهقين من شبيبة العائلة الخائفة من الزّعيم والحالمة بالزّعامة، تماما مثل العائلات البشريّة.

لمّا حاصرتني عائلة الغوريلاّ، وخفت الهلاك، وكنت أدرك أنّها لو تمكّنت منّي فإنّها فاتكة بي لا محالة، ترصّدت بزعيمها، وطعنته بسهم مخدّر كنت أحتفظ بمجموعة منها في حقيبة ظهر مع آلة تصوير ومسدّس ومنظار ليليّ وكنّش وقلم وأدوات تشريح...حين نعس الزّعيم، طعنته في صدره بخنجر، ثمّ سلخت جلده، وارتديته، وصرت من تلك اللّحظة زعيم عائلة الغوريلا.

قضيت زمنا لا أعلم حسابه بين عائلة الغوريلا، مختبئا

في جلد زعيمها المرحوم، ومسلّحا بكنانة أسهمي المخدّرة وخنجري ومسدّسي. كلّما صرخت في وجهي أنثى أسكتّ رغبتها بما بقي لي من فحولة، وكلّما ثار عليّ قرد شابّ عالجته بسهم مخدّر وبطعنة في الصّدر.

انتبهت أخيرا أنّني كنت أفكّر كغوريلا في غابة، دبّابة من الغرائز تملأ معدتها بالأعشاب والفواكه، وتقذف سمومها في الفروج المفتوحة، والمثير للسّخريّة أنّني كنت أحمل مسدّسا في خصري: ههه تصوّروا غوريلا يحمل مسدّسا! كدت أقضي على هذه العائلة من الغوريلا بأنانيّتي، كلّ الذّكور صرعتها، لم يبق سوى ذكر شابّ كان يتحاشاني، وكنت أفكّر جدّيّا في قتله، حتّى استفاق الإنسان داخلي، هذا الكائن الذي تربّى على الموسيقى والشّعر والفلسفة.. قام يوبّخني:

– أيّها المسخ البشريّ، انزع عنك قناعك، واترك الطّبيعة تكتب قصائدها بعفويّة، دون أن تشوّهها برداءة خطّك، هذا الوطن الصّغير أنت محتلّه، خذ مسدّسك وسهامك ونواياك السّيّئة...واذهب!

لحظتها نزعت جلد القرد، وانكببت على صناعة زورق صغير بعد أن تحرّرت أصابعي ومخيّلتي.

نهر الكونغو العظيم كان يناديني، قطار مرعب من المياه يدخل في غابة من الأشجار الإفريقيّة العملاقة وضباب الأطلسيّ!

ألقيت نظرة أخيرة على عائلة الغوريلا، كان الزّعيم الجديد يضاجع أنثى شابّة، أحسست بما يشبه نشوة الانتصار، امتلأت عيناي بالدّموع، ثمّ ألقيت زورقي في النهر، وجدّفت.

(5)

قصّة: قرد النّيل الأزرق

في مكان أسطوريّ، هو من أجمل الأماكن على هذا الكوكب الأزرق، بين هضاب الحبشة، في جرف يمرّ منه نهر النّيل الأزرق قبل أن يلتقي بالنّيل الأبيض، كان يعيش قرد من فصيلة "أبو قردة" أرضعته امرأة هي زوجة مزارع قتل أمّه حين وجدها في بستانه القريب من النّهر، فرقّ قلب المرأة للقرد الصغير الملتصق بحضن أمّه المقتولة، فأخذته خلسة عن زوجها، وأرضعته من صدرها مع ابنها حتّى كبر قليلا، فأعادته إلى المكان الذي تسكن فيه عائلته، لكن القردة نبذته لقلّة حركته وللحزن الذي يظهر في عينيه، فاعتكف في كهف يطلّ على مجرى النّهر، وراح يتأمّل حركة المياه بين الحجر والشجر: هذا نبع أكبر الحضارات التي عرفها البشر، حيث أرض مصر السّمراء بمدنها وآلهتها وملكاتها وجندها وأنبيائها المطرودين وأغاني المزارعين والصّيّادين تحت قمر النّيل. لأوّل مرّة يحسّ قرد أصيل برغبة في تحويل أحاسيسه إلى أصوات تحاكي صوت الرّيح والماء والأشجار والأحجار والغيوم والشّمس والنّجوم...كانت ضحكاته وصرخاته تكفيه

ليقطف الفواكه، ويضاجع أنثاه، ويفرّ من الوحوش. أوّل مرّة يحس قردٌ بضعفه وتلاشيه أمام الطّبيعة وعجز لغته التي لا تتجاوز الحرفين على فهم غموضها. جرّب تقليد غراب، وحاول جاهدا نطق حرف "الغين"، ثمّ جرّب محاكاة صوت حصاة سقطت في الماء "بلاق" فنطق حرف "الباء" بصعوبة، ثمّ حاكى صفير بلبل وعواء ذئب...ونجح في نطق أكثر من عشرة حروف. ظلّ القرد غريبا بين عائلة القردة التي لم تفهم أحلامه، فهجرها، ومشى أيّاما على ضفّة النّيل، حتّى بلغ كوخا يسكنه بحّار عجوز، فاقترب منه، واستأنس به البحّار، حتّى أصبحا صديقين، كان القرد يقوم بخدمة البحّار العجوز، فيأتيه بالفواكه من الحقول القريبة، وبالماء من العيون التي تتفجّر قرب النّهر، في المقابل كان البحّار يعلّمه النّطق وعزف النّاي، حتّى أصبح ينطق بضع كلمات بشريّة بطلاقة، ويعزف على النّاي بحسّ مرهف. بعد سنوات قليلة مات البحّار، فبكاه القرد لياليَ، وعزف له ألحانا باكية، وحين استبدّت به الوحشة، لبس أثواب البحّار، وذهب إلى قرية قريبة، فاختلط بناسها، وأكل من طعامهم، وشاركهم أفراحهم وأحزانهم، لكنه ظلّ منبوذا، وأحسّ بالغربة بينهم لما لاقاه من غرابةٍ في أفكارهم وأفعالهم، فالذّكَرُ منهم إذا أحبّ أنثى رآها في شرفة بيتٍ أو في حديقةٍ، يغنّي لها أغانيَ حزينة، ويكتب فيها قصائد بدموعه، أو يرجمها بالأزهار وينظر في عينيها بحزنٍ، والأمر لا يتوقّف عند هذا الحدّ، فإنْ صدّته،

تغرّب وتعذّب، وإن لانت له، خطبها من أهلها، وتذلّل لهم ودفع مهرا لها إن قبلوه زوجا لها، وإن رفضوه خطفها إن كان جسورا، أو بكاها إن كان عاجزا، وبين هذه المتاهة المدوّخة من الأحاسيس الغريبة تنبتُ قصص زرقاء لها عيون باكية وأصابع سمراء تشير إلى القمر الخاسف من خلال الشّبابيك العالية، وتأمر الأطفال أن يذهبوا إلى النّوم.

استمعَ القرد إلى كلّ تلك القصص، وضحك منها في سرّه، وشعر بالرّأفة من سارديها وسامعيها، وقرّر في النّهاية أن يعود إلى كوخ البحّار العجوز، هناك أكمل حياته يعزف على النّاي أمام النّهر، ويقتات ممّا يقطفه من ثمار، وممّا يصطاده من سمك. بعيدا عن كلّ قردة العالم: تلك التي تتسلّق الأشجار، وترجم بعضها بالفواكه، وتلك التي تجلس تحت الأشجار، وتفكّر في ما يجعل الفواكه تتساقط على الأرض.

* * * *

أنهيت أخيرا مخطوطة كتابي "القرد" الذي وضعت على غلافه كتعريف "كتاب قصصيّ" إذ أنّ القصص كلّها تمثّل قلادة واحدة على جيد فكرتي القرديّة.

قال لي الأستاذ: سأنشره لك بإحدى الدور التي تغامر بالنّشر للكتّاب الشّبّان. ربّما لم يفهم الأستاذ بعد أنّ قصصي تنتهي عند حدود رغبتي في التحوّل إلى قرد. لا جدوى من أن يقرأها بشرٌ في كتابٍ. إنّها لا تصلح أن تكون جبنا

لقوارض فضولهم. إنّها سموم زرقاء، أنا لست مسؤولا عن نشرها بين ناشئة البشريّة وشبابها وكهولها وشيوخها أيضا.

اللّيالي الخضراء في المدينة العتيقة

(1)

لم تدم إقامتي طويلا في مستودع النّبيذ والجرذان، فقد أعطاني صاحب البار مفتاح بيته القديم في الحفصيّة، كنت قد كسبت ودّ الرّجل ببعض الرّشاوي العاطفيّة، كأن أسويّ له الكرسيّ وأهتمّ بجلسته في ركن البار مع أصدقائه. هي حركات خفيفة كنت أحاول أن لا تسقط في التّكلّف حتّى لا يملّني، ولا تسقط في التّملّق حتّى لا يستعبدني، كانت حركات ذكيّة تؤطّرها الخفّة والعفويّة والابتسامات، كان يحتاجها هو ليثبت أمام أصدقائه دون تبجّح أنّه سيّد هذا المكان، وكنت أحتاجها أنا لمآرب تخفى عن النّادل العجوز الذي ما انفكّ ينعتني بالمتملّق "القفّاف" كما كان يقول، حامل قفّة سيّده. ليت ذلك العجوز الغبيّ يدرك أنّ هذا السّلاح السّريّ الذي كسبته بكثير من الذّكاء العاطفيّ هو الذي فتح بلداناً وركّع شعوباً.

العمل الذي قام به السّياسيّ داخلي أثمر أخيرا إقامة

مريحة في بيت فسيح فيه غرفة نوم وغرفة استحمام وقاعة استقبال وصحن تتوسّطه بئر،قال لي المنصف (صاحب البار):

– هذا ما يمكنك التّصرّف فيه.

وحين سألته عن الغرف الكثيرة المغلقة اكتفى بالتّبسم، و قال:

– لقد اكترتها منّي الجرذان.

لقد ترك "المنصف" بيته هذا، وبنى فيلاّ في ضاحية "قمرت". كان يقول لي مزهوّا:

– الحياة هناك بين الغابة والبحر والشّمس، أمّا هنا فلا شيء غير العدم، حيث الرّطوبة والظّلال وروائح الماء الآسن في الأزقّة الحلزونيّة الضّيّقة وقشور الجير التي تتساقط من الجدران فتزكم الأنوف وتُدمع العيون.

كانت "الحفصيّة" حومة عجوزا مصابة بالبواسير والرّوماتيزم والرّبو والقصور الكلوي...تحمل عصاها الغليظة، وتمشي مترنّحة تحت أقواسها الحزينة، تنبعث من أثوابها العتيقة روائح البصل والسّردين والماء الآسن...ومن شفتيها المشقّقتين يخرج صراخ ماعز مذبوح تصاحبه أغانٍ شعبيّة باكية ل"صالح الفرزيط" و"سمير الوصيف" ...

غير أنّ "المنصف" لم يقطع صلته بمنابته، فكان يتردّد دائما على البيت مع أصحابه، ويطلب منّي أن أهيّء لهم مجلسا قرب البئر، في صحن البيت، وكنت أتفنّن في مهمّتي

تلك، فأقدّم لهم البيرة مثلّجة مع المملّحات والحمص المطبوخ مرشوشا بالملح والكمون، وأدير لهم اسطوانة للقدود الحلبيّة بصوت "صباح فخري"، فيتمايلون طربا، ويرشّونني بالمديح، وببعض ما منّت عليهم آلهتهم اللّيبراليّة من أموال لا يعرفون حسابها في البنوك الدّوليّة، لقد كانت الجماعة عصابة تتحكّم في شبكات التّهريب والفساد، هكذا حدّثني عنهم مرّة "المنصف"، وقال إنّ أغلبهم قضاة وسيّاسيّون ورجال أعمال...كانوا يهربون من العيون، فيجدون في هذا البيت العتيق بالحفصيّة مأربهم.

كنت أتصنّت على أحاديثهم من خلف شبّاك غرفتي، وهم يتحدّثون عن عشيقاتهم من المغنّيات والممثّلات وعارضات الأزياء...وعن صفقاتهم وعلاقاتهم، وكانوا كلّما لعبت البيرّة بعقولهم تعرّوا أكثر وتخفّفوا من ريش الطّواويس التي يتدثّرون بها، وأصبحوا فراخا تنقر عيون بعضها البعض، فيتطاعنون بخناجر التّخوين:

– أنت تشتغل لصالحهم

– هو مجرّد تمويه، وأنت لا تفهم تكتيك الكبار

– أنا ألعب واضحا، ولا أحبّ حركات ما تحت الطّاولة

– السّمكات الكبيرة يلزمها طعما سمينا...

.....

بعد ذلك، تخفت أصواتهم، ثمّ يتعانقون، وتتقارع الكؤوس من جديد، ويطلبون المزيد من البيرة والحمص والطّرب...

ولا تنفضّ مجالسهم عادة إلاّ مع آذان الفجر، فينسحبون صامتين، ويتركون فوضاهم وأعقاب سجائرهم وشيئا أغلى من كلّ ما يملكون: إنّها لحظات الهدوء في فجر المدينة العتيقة.

* * * *

(2)

كان البيت من إرث الدّولة الحفصيّة، ما ينفكّ صاحبه يسرد تاريخه مستشهدا بمفتاح عملاق وبوثيقة صفراء أكلت الأرضةُ أطرافها يقول إنّها العقد الذي اشترى به جدّه البيت من أحد التّجّار اليهود زمن الدّولة الحفصيّة.

البيت كان عبارة عن قلادة من الغرف جوهرتها باب أخضر من الخشب العتيق، وككلّ البيوت التّونسيّة العتيقة يظلّ صحن البيت مكشوفا على الفضاء.

اكتشفت بعد أيّام قليلة من إقامتي في البيت أنّني لست ساكنه الوحيد، فقد كانت تقاسمني إياه أرملة أخ "المنصف" وابناها الشّابّان، كانا مثل أبناء جيلهما، لهما مؤخّرتان تقهقهان تحت سروالَيْ دجينز هابطين، وفمان معوجّان وهما يردّدان أغاني "الرّاب" و"المزود" وهتافات تشجيع فرق كرة القدم، كان الكبير محبّا للتّرجّي، وكان الصّغير محبّا للإفريقي، لذلك كسبت ودّهما ببعض الدّهاء، فكنت إذا التقيت بالأكبر ألوّن عاطفتي بالأحمر والأصفر وإذا التقيت بالصّغير

ألوّنها بالأحمر والأبيض. وكانت أمّهما امرأة طيّبة، لا تبخل عليّ بما تطبخه من أكلات شهيّة، وخاصّة الملوخيّة كلّ ليلة جمعة، حيث كنت أعود إلى البيت باكرا، إذ أنّ البار يُغلقُ كلّ يوم جمعة مثل كلّ بارات العاصمة، لذلك فهو يوم راحتي، أنهض كعادتي صباحا، فأتسكّع في العاصمة، وأزور صديقي "أبي خلف" في حديقة "البلفدير"، ثمّ أعود إلى مغارتي في الحفصيّة، ومن الباب ترحّب بي رائحة الملوخيّة، وأجد نصيبي فوق طاولة قصيرة بغرفة نومي. قالت لي "حسناء" وهذا اسمها:

– كان المرحوم (تقصد زوجها المتوفّى) يطلب الملوخيّة كلّ ليلة جمعة، وأنا لم أتوقّف عن هذا التّقليد بعد موته.

وكانت تمسح دمعتها بطرف السّفساري.

أيّام عملي بالبار، كنت أعود بعد منتصف اللّيل، فأتمدّد بين أكوام الكتب التي نقلتها من نهج الدّبّاغين كما ينقل الجرذ القشّ إلى جحره، وكانت "حسناء" تقول لي حين تدخل غرفتي أحيانا:

– تلك الكتب رتّبها في خزانتك.

ثمّ تتأفّف مبتسمة:

– أنت مثل وجدي وماجد (تقصد ابنيها)، أصلحهما الله إنّهما يقضيان النّهار كلّه بين المقاهي والشّوارع وساحات الكرة... ولا يعودان إلاّ لبطنهما أو نومهما، إنّني أتعب في تربيتهما، لكنّهما عيناي، وفيهما أشمّ رائحة المرحوم.

سألتني مرّة عن عائلتي، فصنعت لها قصّة من هواء الغرفة الثّقيل:

– أبي كان مزارعا كبيرا، وسقط يوما في البئر، وهلك، وأنا طفل في الرّابعة، وبعده تزوّجت أمّي رجلا كان يشتغل خمّاسا عند أبي، فافتكّ أرضنا، وعاملني بقسْوة، وصار يضرب أمّي كلّما تصدّت له ومنعته عن ضربي، فلم أجد حلاّ غير الفرار إلى العاصمة.

يومها تألّمت المرأة كثيرا لقصّتي، وهي تمسح دموعها بطرف السّفساري، وتقول:

– سيعوّض الله عليك بامرأة صالحة حنون وأولاد، فلا تحزن.

* * * *

(3)

كان البيت رغم سكّانه، يبعث في قلبي الوحشة، تسكنه أصوات خافتة، هي تكتكة السّوس في الأثاث الخشبيّ العتيق، أو وقع حصاة في البئر، أو حفيف الرّيح يتردّد من شبّاك تكسّر بلّوره. غير أنّني كنت متحصّنا برسم غريب ل"جويا"، فيه رجل ينام وحوله خفافيش ووحوش، جعل له الرّسّام عنوانا لافتا "نوم العقل ينتج الأشباح"، كنت قد اقتلعت الرّسم من أحد الكتب وعلّقته على جدار غرفتي، حتّى إذا تسلّل الخوف إلى نفسي، أيقظت عقلي ليطرد عنّي

الأشباح. هذه معجزة الرّسم معي. عقلي كان "بودي غارد" يدفع عنّي الهلاوس والظّنون وما ترسمه على الهواء الثّقيل من شياطين وأشباح، وكان لابدّ من تغذية هذا الحارس بقراءة كتب الفلسفة والفكر والأدب...وبدافع تلك الفكرة التهمت كلّ ما كتبه "ابن رشد" و"ابن خلدون" و"توفيق الحكيم" و"التّوحيدي" و"سارتر" و"داريدا" و"نيتشه" و"غوركي" و"بودلير" وغيرهم من كتّاب العالم، كنت كلّما قرأت كتابا أشعر أنّ عقلي صار أقوى وأشرس، وكنت أراه يمزّق الأشباح والشّياطين بمخالبه وأنيابه الزّرقاء. حتّى أصبح عقلي وحشا كاسرا وصار مبعث خوفٍ لي.

هل سمعتم بإنسان يخاف من عقله؟ هذا ما كان يحدث لي في عزلة البيت العتيق بالحفصيّة، كنت مثل مزارع أمريكي يتوجّس من كلبه "البولدوغ" الذي فقد بصره، وصار دابّة قتل عمياء، بعد أن كان حارسه الأمين ورفيقه في طرق الغابة. وهو الآن يحتجزه في قفص مؤجّلا عمليّة إعدامه.

ولم يكتف عقلي بإخافتي، بل صار يتدخّل في شؤوني الخاصّة جدّا، ويمنع عنّي رغباتي البسيطة، تصوّروا حين دخلت غرفتي "حسناء" ذات ليلة، دون أن تضع سفساريها، وقد تركت جديلتيها تسقطان على كتفيها، كانت تدليهما وهي تنحني بآنية الملوخيّة، تنتظر أن أمسك بطرفيهما وأصعد من البئر المعطّلة التي ألقى بي في قاعها عقلي، وكانت ابتسامتها وهي تشير إلى كتاب "مسخ الكائنات"

لأوفيد:

– ذاك الكتاب خبّأه عن الأنظار.

كانت تلمّح لصور الأجساد العارية فيه، وكان نهداها تحت الفستان الزّهريّ يستجديان لمسة من أصابعي، غير أنّ عقلي نهض من أكوام الكتب، وقيّدني إلى مقعدي بحبال قاسيةٍ مثلما يفعل القرصان مع رهينته، ولم يرحم بكائي، وهي تنسحب بمشية مؤلّفة من أمواج ثوبها الزّهريّ اللاّمع على شاطئ عجيزتها السّاحر.

اتركني أيّها القرصان

سأمنحك كلّ كنوز روحي

فقط اتركني هذه اللّحظة.

كنت أبكي بصمت أمام آنية الملوخيّة التي يتصاعد منها البخار، ومن جزيرة غامضة جاء رسول بقناع أخضر، ورمى رسالة بين قدميّ، فانحنيت أقرؤها، كانت بأسلوب "إخوان الصّفا":

"اعلم أخي، أنّ اللّذّة الجسديّة هي أصل النّشوء، إنّها نداء الطّبيعة للتّوالد، لكن هذا القرد المفكّر المسمّى "الإنسان" شوّهها وحرّفها، فبغاية تنظيم حياته قلّم رغبته، وسجن جسدَه في شرنقة العقل، وتشكّل في عصابات تسمّى عائلات وقبائل ودول. فنمت مكبوتاته على حساب رغباته، وتفاقمت عاهاته النّفسيّة على حساب أحلامه. كم من ذكر بالغ لم يجد أنثاه فأفرغ رغبته في ذكر يافع. وكم أنثى

نضجت ولم تجد ما تطفئ به حرائقها سوى باحتكاكها بجسد أنثى مثلها. يا لحزن الطّبيعة وفاجعتها أمام زغردة العدم في أعراس الأجساد الخاوية. أنت لا تدرك اللّذة التي يتكاثر بها النّبات والحيوان...إنّها اللّذة ذاتها التي تتكاثر بها الأفكار والأضواء والموسيقى...

واعلم أخي أنّ اللّذة طاقة فيها سالب وإيجاب، تماما مثل الدّورة الكهربائيّة، طرفها الأوّل هو الفم، وطرفها الثّاني هو الفرج عند الأنثى والقضيب عند الذّكر، فإن لم تبلغ اللّذة الطّرفين لن يشتعل الجسد بالحياة. الفم الجائع والعضو المكبوت لا يكوّنان سوى جسد ذابل وروح مطفأة. الطّبيعة تناديك كما نادت قبلك آدم، وكانت رسالتها في شكل تفّاحة، فلبّى نداءها وهبط إلى السّفح حيث الوحل والدّم والدّموع واللّهاث والضّراط والصّراخ... في السّفح ثمّة أزهار تأكل حشرات تتناسل، وأفاع تلتهم قوارض ثمّ تلتفّ حول بعضها في الهجير، أمّا القوارض النّاجية فتتناكح بسرعة في مغاراتها، وفي الفجاج البعيدة يُسمع صراخ الأبقار والأحمرة وهي تولج اللّحم في اللّحم، ثمّ تنقضّ عليها سباع فتأكل الواهنة منها، وقبل أن يجفّ الدّم من شواربها تتناكح السّباع بكسلٍ بين الأعشاب اليابسة، ثمّ تهطل أمطار، ويُسمع صراخ مواليد جدد. إنّها الطّبيعة تتلذّذ، فلا تبخل بقطرات من مائك لتساهم في أمطار الخلق.

أكملت قراءة الرّسالة، وفككت قيودي، ثمّ بدأت أمزّق

الكتب وأنثر ورقاتها على الفراش، قلت سأستمني فوقها نكاية بالعقل، أثناء ذلك عادت "حسناء" لتأخذ آنية الملوخية (هكذا خمّنتُ)، نقرت الباب بلطفٍ، ثمّ دخلت، كانت خطواتها مرتبكة وهي تقترب منّي بطبق الغلال، وتفتح فمها باستغراب:

– لماذا فعلت هكذا بكتبك؟

وحين اصطدمت بجدار صمتي، قالت:

– لم يعجبك طبخي اللّيلة إذن؟

– كلّ ما يأتي من أصابعك طيّب يا حسناء

ارتبكت وهي تسمع اسمها يخرج من فمي عاريا دون لحاف "خالتي" كما كنت أناديها، تعمّدت لمس يدها وأنا أمسك طبق الغلال الذي مدّته لي، فابتسمت ولمع برق أزرق من الشّبق في عينيها، وحين انحنت لتأخذ طبق الملوخيّة مسكتها من كتفها، وحين استوت واقفة عانقتها من الخلف، فصرخت:

– لا..لا...هذا غير معقول

مسكت نهديها وعصرتهما بأصابعي فلانت المرأة، ثمّ قبّلت عنقها وأحرقتها بأنفاسي فتأوّهت، أدرتها إليّ، كانت عيناها شبه مغمضتين، وكان فمها مفتوحا مثل سمكة عالقة في شصّ، سقطتُ على فمها أمتصّه، فطوّقتني بذراعيها وهي تتأوّه، نزعت عنها ثوبها الزّهريّ، فبان أرخبيل برونزيّ مهجور، قبّلته بلهفة مثلما يقبّل عائد من المنفى تراب وطنه،

ثمّ سقطنا معا على الفراش المكسوّ بأوراق العقل. غمست أصابعي في الملوخيّة، ورحتُ أدهن بها عنقها، فبان مثل جذع شجرة، ثمّ رحت ألعق السّائل الأخضر بلساني، واستمعت لتأوّه الشّجرة، ثمّ دهنت النّهدين فبانا مثل هضبتين تكسوهما خضراء الدّمن، بينما الحلمتان فوقهما مثل بزّاقتين، رحت أمتصّهما وأستمع لتأوّه العشب. بعد ذلك هطل مطر دافئ على الأرخبيل المهجور، ورفرفت طيور بيضاء بين الهضبتين المكسوّتين بخضراء الدّمن.

* * * *

(4)

بعد تلك اللّيلة الخضراء، صارت "حسناء" تهتمّ بترتيب غرفتي وغسل ملابسي المتّسخة وتحضير الفطور لي كلّ صباح، أصبحت أنهض وأنام على صوتها:

– صباح الخير عبد الله، انهض الفطور جاهز

– تصبح على خير، ستجد عشاءك على الطّاولة في غرفة نومك.

وفي الأيّام التي يأتي فيها "المنصف" مع أصحابه، كانت تذوب كحبّة ملح في كأس ماء، أمّا ليالي الجمعة الخضراء فهي ما تقاطع من أحلامنا في روتين البيت العتيق.

كنت أنهض كلّ صباح، وأفتح عينيّ على عتمة الغرفة التي لا تعرف الشّمس، فالمدينة العتيقة كلّها متاهة من

الظّلال والجدران لا تصل الشّمس إلاّ لسطوحها أو لصحونها المكشوفة عند منتصف النّهار. كنت أبدأ يومي بعد خروجي من البيت بالصّعود إلى جامع الزّيتونة المعمور، في طريق نحيفة مبلّطة بحجارة رماديّة زلقة لكثرة ما مرّت عليها الأقدام، وكنت أتساءل أحيانا: هل مرّ "ابن خلدون" من هنا وهو يقصد جامع الزّيتونة بيت معرفته الأوّل؟ لا شكّ أنّه كان في مثل هذا الفصل البارد يتلحّف ببرنسه ويتأبّط مخطوطاته!؟.

في مدخل الجامع أنظر دائما إلى ساعتي "الشنْوا" المعطّلة. الوقت عندي "لا وقت". تدغدغني شهوة الصّلاة بين أسراب الحمام. أيّة صلاة في هذا الوقت؟ الصّبح فات، والظّهر لم يأت بعد. صلاة الصّبح تكون على السّاعة 5.40، وصلاة الظّهر تكون على السّاعة 12.39. هل يحتاج اللّه إلى كلّ هذه البيروقراطيّة ؟ عادة أكتفي بركعتين وأسمّيهما "صلاة الحبّ".أقرأ فيهما الفاتحة، وما تيسّر من سورة الإنسان: "هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حينٌ منَ الدّهْرِ لمْ يكنْ شيْئاَ مَذْكورًا1 إنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمشَاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعلْناهُ سَميعًا بَصيرًا2 إنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمَّا شَاكِرًا أوْ كَفورًا3

ألْقي السّلام على الحمام، ثمّ أغادر جامع الزّيتونة هابطاً إلى شارع بورقيبة. أتدحْرج بين أزقّة المدينة العتيقة على الحجارة الرّماديّة التي بُلّطتْ بها الأرضيّة، وأعبر دكاكين السّجّاد والتّحف وأواني النّحاس والأقمشة والشّاشيات

والعطور الشّامية والبهارات الهنديّة...تعود حمائم حواسّي تُحلّق في مدن الشّرق القديمة وبين شبابيك ألف ليلة وليلة. تاريخ من السّحر والعطور والمذاقات والألوان ينعس بين رطوبة الجدران وضوء القناديل المزركشة. أخيرًا أصل إلى البوّابة الشّرقيّة للمدينة العتيقة "باب البحر" بوّابة فرنسا كما سمّاه الفرنجة زمن الاستعمار. أقف أمام تونس الفرنكفونيّة، يتوسّطها الشّارع الذي أطلق عليه "الحبيب بورقيبة" اسمه دلالة على استقلال تونس، وظلّت فرنسا تحرسه بعلمها وقنصليّتها وكتدرائيّتها وروح مبانيها التي تُسبّح باسم فرنسا ليلا نهاراً: مقهى باريس، مقرّ جريدة لابراس، المسرح البلدي، قاعة "لامونديال" للسّينما، مقهى لونيفار، النّزل الدّولي...كلّها فرنسا، وسدنتها موظّفون برّاقو الوجوه وأشباه مثقّفين يسرقون بعض حركات البوهميّين الفرنسيّين أواخر القرن التّاسع عشر، ويتحدّثون عن المسرح والشّعر والحداثة بأسلوب متشنّج وبمصطلحات مشنوقة من مؤخّراتها، أغلبهم حجّاج للمراكز الثّقافيّة الفرنسيّة: امسحْ حذاء فرنسا بطرف من سفساري أمّك وخذْ أجرك. يكفي فلْم رخيص تُطلق فيه فتاة برونزيّة مثل "هند صبري" لتركض دامعة بين أزقّة المدينة العتيقة، وتُطاردها عصابة من المكبوتين المسلّحين بالخناجر والظّلام، قبل أن تُدرك الضّوء في باب البحر "بوّابة فرنسا". كلّ هذا العهر الثّقافي كانت تستخدمه فرنسا لتحويل المدينة العتيقة بروحها العربيّة مُتحفا كبيرا للتّخلّف المرشوش بالغبار

والعتمة.

أتذكّر نظريّة الأستاذ زاهي في الإحتلال:

الاحتلال هو فعل حيوانيّ بامتياز. القوت للأقوى. هذا ما يقوله الأسد للضّبع، وهذا ما تقوله الأفعى للفأر. لكن ثمّة أساليب أكثر خطورة في الاحتلال طوّرتها بعض الحيوانات وحاكاها بنو آدم، ومن بين هذه الطّرق حيلةُ نسرٍ يضع بيضته في عشّ عصفور ويذهب في سبيل حاله، حتّى إذا أفقست البيوض، مدّت الفراخ أعناقها إلى الطّعام فكان فرخ النّسر هو السّبّاق إلى اللّقمة ومُفْتكّها من أفواه فراخ العصافير الذين يموتون فرخا..فرخا..من الجوع، ولا يظلّ سواه في عشّ العصفور. إنّه المحْتلّ بقناع الابن الشّرعيّ. وكذلك كان شارع الحبيب بورقيبة، إنّه فرخ فرنسا في عشّ تونس.

ثمّ يتملّكني الضّحك حين أتذكّر حماسه للثّقافة الفرنسيّة:

أنا لا أكره فرنسا. لي فيها أصدقاء رائعون: "بول ايلوار" و"ماتيس" و"رامبو" و"بودلير" و"أبولينير" و"ايديت بياف" و"جاك برال" و"أراجون"...هؤلاء الذين قاسموني ماء الخيال وملحه. لكنني في المقابل أكره فرنسا التي تختار لي ملابسي، وتفرض عليّ طريقة رقص لا تحرّرني من جسدي، وتطبخ لي أطعمة لا أستسيغها كزوجة الأب، وتُملي عليّ ما أكتبه وما أصوّره، وتُحوّل وطني مُتْحفا كبيرا فيه شمس وبحر

وصحراء وجِمالٌ وعربات تجرّها خيول عربيّة أصيلة.

قلت لنفسي وأنا واقف تحت قوس باب البحر، لو أصبحت رئيساً لتونس، فحتما سأكون راديكالياّ مثل "جمال عبد النّاصر" أو مثل "هوغو شافيز"، سوف أغيّر الشّارع كلّه، مقرّ وزارة الدّاخليّة سأطرده بعيداً وأعوّضه بمركز لتعلّم العزف على السكسفون، قنصليّة فرنسا هي الأخرى سأطردها إلى أيّ مكان آخر، وأشيّد مكانها جامعا أسمّيه جامع المحبّة، سيكون جامعا للمتصوّفة دون سواهم، ويكون طلاء جدرانه أخضر مثل قمصانهم، وتكون له قبّة بيضاء ومئذنة قصيرة ليسكنها الحمام، أمّا الكتادرائيّة قبالته فسأتركها على حالها تطوف حولها القدّيسات بملاءاتهنّ الزّرق كاليمامات، وسأبني جنبها معبدًا لليهود الطّيبين الذين يتبرّؤون من أفكار "هيرتزل" وأفعال الخنزير "بن غريون". سيكون الشّارع للإنسان والحيوان والشّجر. وسأطلق عليه اسم "تونس"، سيكون من الآن "شارع تونس".

* * * *

(5)

مرّت الأيّام ثقيلة في بار قاريبالدي كممارسة واجب وطنيّ، حتّى جاء اليوم الذي انقلبت فيه حياتي رأسا على عقب أو ربّما عقبا على رأس؟ لم أعد أعرف، فحياتي مشوّشة لا أتبيّن رأسها من عقبها، كان ذلك يوم استدعاني

الأستاذ "زاهي" إلى جلسة قال ستجمعه مع ثلّة من الكتّاب:

– ارم الخرقة في وجه عرفك وتعال، سأعرّفك على أصدقاء مهمّين ، سيعينك بعضهم على نشر كتاباتك أيّها القرد المبدع هههه.

راقت لي الفكرة، لكن لم أشأ إغضاب سيّدي في العمل، ليس خوفا منه وإنّما احتراما ومعزّة للرّجل الذي فتح لي مستودع خموره وأسراره.

نظّفت المراحيض جيّدا وذهبت إليه، كان يجلس في ركنه، يقلّب دفاتر الحسابات:

– سي المنصف، لقد استدعاني الأستاذ "زاهي" إلى جلسة مع أصدقائه الكتّاب. رمقني بنظرة خاطفة، دون أن يتكلّم، وعاد إلى أوراقه كأنّه ينتظر التّوضيح منّي.

– لقد نظّفت المراحيض جيّدا، وأريد أن أشارك الأستاذ جلسته، وسأتفقّد عملي كلّ نصف ساعة. ما رأيك سي المنصف؟

ودون أن يرفع نظره عن الأوراق هذه المرّة، كلّمني بصوت متعب: أوكي، على راحتك!.

– عيشك عرفي

هكذا هتفت، وأنا أتوجّه إلى مجلس الأستاذ، واستيقظ داخلي عتاب خفيف: هل كان لابدّ من هذه الكلمة المتزلّفة التي يتربّى عليها الخدم والعبيد. تساءلت بيني وبين نفسي عن أصل هذه الكلمة "عرفي" هل تكون كلمة تركيّة مشتقّة

من التركيب الإضافي العربي " صاحب المعروف"؟ سأسأل عنها الأستاذ. هكذا حسمت الأمر مع نفسي. والحقيقة أنّني نسيت المسألة أصلا بينما الأستاذ يرحّب بقدومي:

– أهلا بأديبنا الشّاب، هذا "عبد الله شكون" القصّاص الذي حكيت لكما عنه، قال ذلك وهو يلتفت إلى نديميه، ثمّ أضاف وهو يحوّل نظره إليّ:

– هذا الشّاعر "ابن الجنوب" مشيرا إلى كهل أسمر نحيف له ملامح الطّوارق القاسية.

"مرحبا" قلناها معا أنا وابن الجنوب ونحن نتصافح. ثمّ عرّف لي الأستاذ الرّجل الذي يجلس يساره:

– هذا الكاتب والصّحفيّ "عبد الرّحمان ماجون"

كان رجلا أشقر، قصير القامة، في أواخر الشّباب من عمره، هبّ واقفا وعانقني مرحّبا:

– أهلا بالمستقبل.

أربع قوارير بيرة "عم صالح". رفع الأستاذ يده مخاطبا النّادل العجوز.

– إنّها المرارة التي تحلّي الحياة. قالها الصّحفيّ ضاحكا... وجاءت المرارة في الزّجاج الأخضر.

كانت جلسة واعدة، ذكّرتني بحلقات نقاش "إخوان الصّفا" التي تحدّث عنها التّوحيدي، كان الأستاذ يرمي الفكرة فيتلقّفها ابن الجنوب وماغون مثل لاعبي كرة تنس، فيتقاذفانها بين الشّمال واليمين، وكنت أنا أقلّب النّظر بين

هذا وذاك، والواقع أنّني كنت مقيّد الذّهن إلى ما حدث لي صباحا في البلفدير، كنت قد خرجت في جولة العادة من الحفصيّة إلى جامع الزّيتونة ثمّ مررت بنهج الدّباغين، واقتنيت رواية راق لي عنوانها "الثّعلب الذي يظهر ويختفي" لمحمد زفزاف، كانت طبعتها قديمة، وممزّقة الغلاف، لكني دفعت فيها دينارا، وطويتها تحت حزام سروالي الدجينز مثل ناشط سياسي يخفي منشورات حزبيّة سرّية، ثمّ قصدت حيّ صديقي "أبي خلف" بعد أن أخذت له موزة وكيسا صغيرا من الفواكه الجافّة. وقفت على بابه، لكنه لم يظهر كعادته، قلت ربما يكون نائما في إحدى زوايا القفص الخفيّة، جلست على حجرٍ خرسانيّ أنتظر ظهوره. مرّت الدّقائقُ ولم يظهر. أخرجت الرّواية المطويّة تحت الحزام، قلت أقرأ منها صفحات حتى يظهر "أبو خلف":

بسم الله الرّحمان الرحّيم، أبدأ كلامي فأروي لكم ما يلي....هكذا تبدأ الرّواية، جذبتني بدايتها المباغتة فغصت فيها، حتّى بلغت هذا المقطع الذي ذكرني بأبي خلف:

.....

.....

ومرّ أمامي في الشّريط رجال كثيرون يلهثون فوق نسائهم ولعابهم يسيل كالكلاب، ثم انفصلت النساء عنهم، وفتحن أفخاذهنّ للتوّ وأخذْن يصرخن ويتوجّعن "آ ربّي" ثم خرج من بين أفخاذهنّ أطفال صغار مثل القردة. تمّت العمليّة بسرعة

بين اللّهاث والولادة. ثم بدأ الأطفال يمشون دون أن يتعلّموا الحبو ثمّ رأيتهم يلعبون بأسلحة ناريّة وقلت لابدّ أنّهم سيتحاربون. لأنّه كان عندي يقين أنّ الحروب هي في أوّل أمرها لعبة.

رفعت رأسي، وتأمّلت القفص قبالتي، لكن لا أثر لأبي خلف، أحسست أنّ صديقي حدث له طارئ ما، واستعذت بالله من وساوسي، أثناء ذلك مرّ أمامي أحد عملة الحديقة، استوقفته، وسألته:

– أين أبو خلف؟

– لا أعرف أحدا بهذا الإسم.

– أقصد القرد.

– آه. القرد مريض وهو تحت العناية المركّزة، وأنت لماذا تسأل؟

كانت كلماته خناجر سدّدها نحو صدري، وأصابت هدفها في الدّائرة الحمراء المرسومة على الجهة اليسرى، هجم عليّ إحساس همجيّ هو مزيج من الحزن واليأس والألم... أذاقني حليبه المرّ، وشلّ تفكيري وعقد لساني، فبقيت مشدوها ومشلولا مثل الخسارة.

تركني العامل، ومضى في سبيل حاله دون أن ينتظر جوابا عن سؤاله.

* * * *

انتبهت إلى حديث الأستاذ "زاهي" وهو يحلّل قصصي، قال:

تأمّلوا جيّدا في مخطوطة "القرد"، إنّ الكاتب يحطّم السّلّم الأرسطي للنّشوء والتّطوّر، إنّه يوقف رحلة الصّعود إلى درجة الإنسان، ويلعب على الخيط الشّفيف الفاصل بين الحيوان والإنسان، فيجذبه ويرخيه مثل خيط القوس، ويرمي أسهمه النّاريّة على حصون القارئ. ما الإنسان بغير عقله؟ وما الإنسان بغير لغته؟. حين نتحدّث عن اللّغة الإنسانيّة فهي ليست مجرّد شدّ وإرخاء للحبال الصّوتيّة، فتلك الحركات يمكن أن يتقنها طائر قبيح ذو منقار معقّف، فاللّغة هي قراءة أفكار الغيم والشّجر والحجر والكائنات... تماما مثلما نقرأ في قصّة "قرد النّيل الأزرق" حيث يعود بنا الكاتب إلى ينابيع الحضارات البشريّة والهمهمات الأولى لتشكّل لغاتها. كما أنّ العقل ليس سقفا أدركه الإنسانُ بسلّم أعرج من حكم خشبيّة، بل هو سماوات لا حدّ لها، وما على الإنسان سوى تدريب جناحيه على التّحليق فيها. العقل هو تحليق لا يرجى منه وصول، ودونه يظلّ الإنسان سجين الحيوان فيه، بل هو أقلّ مقدرة وطاقة من الحيوان، في قصّة "مربّع السّعادة" ثمّة محاكاة ساخرة للحظائر البشريّة التي تصبح فيها الرّغبة الجسديّة هي الرّابط الوحيد بين الرّجل والمرأة، ويتفوّق فيها الحيوان على الإنسان.

كما أنّ القصص تفتح لنا مختبرا للتّشريح الذّهنيّ لهذا

المسمّى "إنسان"، لنقرأ مثلا قصّة "الحديقة الوطنيّة للحيوان"، فالبطل في القصّة هو شخص يتحرّك بمجرّد الضّغط على كلمة "طبّق"، إنّ الميزات التي ترتقي بالإنسان عن الحيوان "النّاطق" "العاقل" "الحالم" كلّها تغيب في هذه الوظيفة التي كلّفوه بها مقابل أجرة شهريّة، فالوظائف هي سلب للإنسان ما دامت لم ترتق إلى درجة الفنّ والخلق.

.....

.....

كان الأستاذ يتكلّم بحماسة، بينما كفّاه تطوّقان كأسه، وكنت أنا أترشّف كلماته مع البيرّة، وفي دماغي تقاطعت رواية "زفزاف" وهو يتحوّل إلى ثعلبٍ، والحديث الذي دار بيني وبين العامل في حديقة البلفدير، وقراءة الأستاذ "زاهي" لمخطوطتي القرديّة، ومع كلّ كأس بيرّة كنت أحسّ ما يشبه الذّيل يتدلّى بين ساقيّ، بينما أذناي تتمدّدان قليلا، والشّعر يكسو جسدي. وثبْت أخيرا من مقعدي، ودون أن أودّع الأستاذ "زاهي" ونديميه، فتحت باب البار، وقصدت حديقة البلفدير.

النّزيل الجديد في البلفدير

(1)

فعلت كلّ الأسباب التي يمكن أن تحوّلني قردا، لكن دون جدوى.

اليوم فقط نجح معي الأمر، ببعض كؤوس بيرة في بار "قاريبالدي" أمكنني أن أصبح قردا جميلا.

اليوم فقط استعدت قرديّتي الضّائعة، وأنا أخرج من بار "قاريبالدي" قافزا بأسلوب قرد البونوبو غير عابئ بدهشة النّاس وضحكهم، مررت في طريقي بشرطيّ فخطفت قبّعته ووضعتها على رأس شحّاذ وركضت بعيدا، ثمّ أختلست عنقود موز من عربة بائع جوّال ومضيت فَرِحا بغنيمتي...أنا الآن قرد طليق في شوارع تونس، استعدت قرديّتي أخيرا بعد جلسة خمر في بار "قاريبالدي".

سوف أختار شجرة في حديقة البلفدير، لأستوطنها، ومن بين جذوعها أتلصّص بالنّظر على المدينة، وأضحك بأسلوبي القرديّ الأصيل من بلاهة سكّانها.

لكن القردة الأصيلة أوطانها ليست الحدائق المسيّجة

بالعسس وعيون النّاس! ثمّ إنّك في النّهاية ستقوم بدور بشريّ محض، فلا تخدع نفسك. إن كنت حقّا جادّا في التّحوّل إلى قردٍ فعليك أن تخلع عن جلدك كلّ هذه الأسمال المسروقة من جلود إخوتك الحيوانات، وتعود إلى غابتك الإستوائيّة العذراء.

لا بأس تلك غاية الغايات: أسمّيها الغابة الموعودة.

وما إقامتي في حديقة البلفدير سوى مجرّد بروفة صغيرة لتحضير الروح والبدن لأجل هذه الغاية السامية، إنّها تماما كغبار ساحات المعارك لطالب العرش، أو لنقل بمعنى أعمق وأسمى كظلمة الشّرنقة للدّودة التي تحلم بالتّحوّل إلى فراشة !.

مجرّد الإقامة في قفص بقناع قرد، سيوصلني إلى العتبة الأولى من رحلتي المقدّسة إلى غابتي الموعودة، وهي أن ألغي صورتي الآدميّة، وأوقف زحف الرّأسماليّة على جسدي: لا حاجة لي منذ اليوم باستعمال الشامبو وجال دوش ومزيل العرق والميكياج ومعجون الأسنان وشفرات الحلاقة، مع ما يرافق كلّ ذلك من استخفاف بالعقول البشريّة وضحك على الذّقون: ما معنى أن يلقي بك أحدهم في أتون الجهد اليوميّ ثمّ يبيعك قارورة صغيرة لإزالة عرقك؟ وما معنى أن يقوم معك بكل وسائل الاستفزاز إلى حدّ أنك تفكّر أنك لو لن تفرغ غضبك في سيجارة فأنّك سترتكب جريمة قتل لا محالة، وهذا ما يجعل أمامه فرصة ليسوّق لك أدوية لعلاج

السّعال وآلام الصّدر ومعجون أسنان لتلميع ما اسودّ من أسنانك؟. أليس هذا ما تفعله الرأسمالية القحبة بهذا الكائن المغفّل المسمّى "إنسان"؟.

لا شكّ أنّها ستزورني في مسكني الجديد بالبلفدير، وتقف أمام باب قفصي لتعرض لي كلّ سلعها الرّخيصة مثل كلّ عاهر:

– هذا شامبو "دوف" وهذا شامبو "شولدارس"، وكلاهما ضدّ القشرة

فأكتفي بالنظر إليها وحكّ عانتي باستمتاع.

– هذا معجون أسنان "سينيال" وهذا معجون "كولجايت"، وكلاهما ضدّ تسوّس الأسنان

فأكتفي بالضّحك مستعرضا أسناني السّوداء.

– هذا عطر "شانال" وهذا عطر العشيقين "دولش" و"غابانا"

فأخرج أيري وأتبوّل أمامها، دون أن أكفّ عن الضّحك، مستمتعا بانكسارها أمامي، وهزيمتها المدويّة.

ممتع أن تكون قردا يتفرّج من شرفته في البشر وهم يتخبّطون في سلاسل رغباتهم، يشيّدون الحيطان ويضعون فيها ودائعهم وأسرارهم، ثمّ تتحوّل تلك الحيطان إلى سجون ومعتقلات تفرّق عنهم أحبابهم.

يخطّون الكتب ويملؤونها بأكاذيبهم، ثمّ تتحوّل تلك الكتبُ إلى مخلوقات غاضبة تسفك دماءهم وتفرّقهم عن

أوطانهم.

يصنعون التّماثيل على أشكال غامضة ترسمها لهم مخيّلاتهم، ثمّ تتحوّل تلك التّماثيل إلى آلهة تصلبهم على عتبات يقينهم.

لكن الأكثر متعة أن تكون قردا في غابتك، تتأمّل الغيوم البعيدة، وترجم العالم بالفواكه والضحك.

* * * *

(2)

بعد اختفاء أبي خلف، أصبحت أدور في مربّع من الفانطازيا الذي يضيق ويتّسع بطريقة مدوّخة كلّما اقتربت من قفص القرد، حتّى أنّني لم أعد أعرف: هل أنا داخل القفص أم أنا خارجه؟ تملّكني شعور الحكيم الصيني "تشونج زو" الذي حلم ذات ليلة أنّه فراشة، وحين أفاق من نومه لم يعد يعرف هل هو إنسان يحلم أنه فراشة أم هو فراشة تحلم أنها إنسان.

بعد الجلسة الخمريّة التي جمعتني بالأستاذ زاهي وندیميه في بار قاريبالدي، التبس عليّ الأمرُ، فلم أعد أعرفُ هل أنا إنسان يحلم أنه قرد، أم أنّني قرد يحلم أنه إنسان.

ربما أصابني مسّ، كان هذا الاستنتاج بعد محاولات متكرّرة لفهم حالتي الغريبة، والتي أرى فيها نفسي وأنا أدور في قفص أبي خلف، ويدور حولي جمهور من البشر. كان

هذا الاستنتاج هو أحد الاحتمالات الكثيرة التي رسمتها لتصوّر حالتي الغريبة، وهي كالتالي:

– قد أكون متّ، وروحي حلّت في جسد أبي خلف.

– قد أكون أنا بلحمي وشحمي، أدور في قفص القرد، ويكون الأمر التبس على جمهور البشر الذين لم يعودوا قادرين على التّمييز بين صورهم الآدميّة وبين صور القردة.

– قد أكون مُسخت قردا، لحظة دخولي حديقة البلفدير، وقد ألقيَ عليّ القبضُ، وتمّ إيداعي قفص القرد، وحالات مثل هذه تحدث كثيرا هذه الأيّام، فكم من عاشقٍ ذهب للقاء حبيبته، فمُسخ قردا في طريقه إليها، وحين التقى بها ذعرت، وفرّت صارخة: إنه قرد..إنه قرد...فمسح المسكينُ دموعه بكمّ قميصه، وعاد إلى أمّه ليسألها: هل صحيح أنا قردٌ يا أمّي، فأكّدت له أنّه غزال. ومن يومها والمسكين لا يعرف هل هو إنسان أم هو قرد أم هو غزال؟ ثمة حالات مسخ كثيرة تحدث يوميّا، ولا مجال لذكرها الآن.

– ثمّة احتمال آخر، وهو في قالب حكاية ألّفتها كأمثولة تجسّد حالتي القرديّة الغريبة، هي تماما مثل أمثولة التّفاحة والجنّة والأفعى التي ألّفها أجدادنا البشر ليفسّروا بداية وجودهم، تقول حكايتي هذه باختصار: أنّ مدير الحديقة خاف من فكرة موت القرد، خاصة وأنّ حديقة البلفدير في الآونة الأخيرة تعرّضت لانتقادات من أعلى هرم السلطة على حدّ تعبير الصّحف الوطنية، وذلك أثناء زيارة سيدة تونس

الأولى مع طفلها الوحيد للحديقة، وحين رغب طفل الرّئيس في التّبرّز لم يجدوا له توالیتا صالحة في الحديقة. حادثة براز ابن الرّئيس هذه إذا أضفنا إليها موت قرد شابّ في الحديقة، ستقلب كرسيّ مدير الحديقة، لذلك اقترح عليّ القيام بدور القرد إلى أن يشفى القرد تماماً أو يتدبّر أمره في شبيه له سيهرّبه بواسطة أحد مالكي حديقة حيوانات خاصّة، وسيمنحني مقابل ذلك أجر ممثّل محترف في المسرح البلديّ. كان هذا الاحتمال كفيلا بإخراجي من مربّع الفانتازيا المدوّخ.

* * * *

(3)

الفُرجة هي مرتع العين، وهي ملعبها إن شبعت وارتوت، وهي جارة "الفرج" في لسان العرب، وصانعة نجوميّته. يكون مغمورا في دهاليزه، فتحوّله نجم شبّاك في قاعات البورنوغرافيا تتزاحم لأجله جماهير الفحول البشريّة دون سواها. الفرجة إذن هي فرج بتاء مربوطة. تلك التّاء هي مصدر شقاء آدم و غربته. تاء التّفاحة. كان آدم مطمئنّا في جنّته قبل أن يُلهيه الفرج والفرجة.

بقليل من المنطق الأبيقوريّ أقول: الفرجة هي زناء العين: تلذّذ الضّوء والمشاهد.

والفرجة هي حَبَل فميلاد عوالم أخرى راقية إن سمت

العين. وهي العهر والفاحشة إن سقطت العين في الحضيض. النّظر من ثقبِ باب أخضر في مبيت العاهرة العجوز. جنت عليّ التّاء المربوطة آخر الفرج ومسختْني قردا في قفصٍ. مبعث فرجة للبشر. وليمةً لعيونهم النّهمة، التي لن يملأها سوى التّراب. مرّت أمام قفصي وجوه كثيرة بعضها غريب وبعضها مألوف. هم يتفرّجون فيّ وأنا أتفرّج فيهم. وثمّة عيون أشدّ نهما تلتهمنا كلّنا. زوّاري ولائم عيون مثلي غير أنّهم لا يدركون. تأكلهم عيون المخابرات وصُنّاع الفرجة في مطابخهم، ثمّ يبصقونهم في الشّاشات واللاّفتات.. لا حدّ لزناء العين في هذا العالم.

* * * *

آخر القفص الذي أسكنه ثمّة بيت خشبيّ صغير مثل بيوت الكلاب البورجوازيّة، لا تدركه عيون البشر، هو بيت راحتي من الفرجة، فيه سرير صغير لنومي واضطجاعي، ومن الخلف ثمّة فتحة صغيرة يضع لي منها حارس الحديقة طعامي وشرابي. اتّفقت مع مدير الحديقة الذي أمضيت معه عقد العمل على فسحة للرّاحة في منتصف النّهار غير محدّدة بوقت فقط تكون حين تخفت الفرجة قليلا. العمل يبدأ من التّاسعة صباحاً وينتهي مع السّادسة مساء، أمّا يوم الاثنين فهو يوم راحة. تماما مثل موظّف في وزارة الثّقافة. أعتبر نفسي إذن ممثّلا في فرقة المسرح البلدي أقوم بدور

قرد في مسرحيّة وطنيّة. ولجودة اتقاني لدور القرد الذي يعجز عن أدائه ممثّل بارز مثل "كمال التّواتي" لم يعد هناك شكّ أمام كلّ المتفرّجين أنّني قرد.

* * * *

(4)

كقرد مثقّف في قفصٍ، أحدّثكم عن القيم أقول:

هي أخطاء شائعة بين الفلاسفة، وهي تجارة مربحة في المدن المتخلّفة يحرص تجّارها لاحتكارها وبيعها في الأسواق البيضاء والسّوداء على حدّ السّواء، ودفع الرّشاوى لقُطّاع الأعناق وقُطّاع الأرزاق لتهريبها عن جمارك اللّه.

أحدّثكم عن اللّيبراليّة أقول باختصارٍ:

هي عاهرة تتحدّث عن القيم ببرودةِ نازيٍّ. في الثّلاثينات من القرن العشرين، حين رأى "هتلر" رجلا يبكي على الحائط، أخرج عينيْه ليتأكّد أنّ دموعه ليست من حساسيّة البصلة المقطوعة في المطبخ. اللّيبراليّة غضبت من "هتلر" ليس لأنّه آذى الرّجلَ، بل لأنّه لم يأخذ ثمن البصلة منه.

أحدّثكم عن تاريخ القوميّة العربيّة أقول:

إنّ "جمال عبد النّاصر" مات قبل أن يولد محمّد بيومين، وإنّ "معمّر القذّافي" قُتل في حرب بين بني عبسٍ وقافلة حبشيّين من أجل غدير ماء. وإنّ "صدّام حسين" حارب جيش كسرى وجيش الرّوم معا وحارب المغول ثمّ ذهب إلى

الأزمنة الغابرة ليحارب الوحوش والدّينصورات ويحارب جلجامش وأنكيدو..لأجل أن تنزل الأمطار على بغداد. ولا يبكي شاعر مثل بدر شاكر السّياب من الجوع والألم.

أحدّثكم عن الحضارة، أقول:

هي حظيرة بناء ونجارة وحِدادة لأجل إخفاء كومة براز. تستغربون: كيف؟ حسنا، سأشرح لكم المسألة بلباقة قرد مثقّف:

ذات مرّة، خرج رجلٌ ليتبرّز على ربْوةٍ بعيدةٍ، انحنى أمام الغروبِ وأغمض عينيه، وبمجرّد خروج الشّيء منه شعر براحة لم ينلْها في كلّ حركاته الدّنيويّة بما في ذلك مضاجعة زوجته، فقرّر أن يظلّ على تلك الحالة ما دام الأمر يُريحه. ثمّ مرّ به البنّاؤون فاستفزّهم المشهدُ، ورقّت قلوبهم للرجل المنحني للمطر والرّياح، فبنوا حوله أربعة جدران وسقف، ومن بعدهم مرّ النّجارون فصنعوا له من الشّجرة شبّاكا وباباً حتّى لا يدخل عليه سبُع أو بشرٌ، ثمّ مرّ به الخزّافون فرأوه حزينًا وموحشًا فوضعوا حوله السّيراميك والجليز، ثمّ مرّ به الكهربائيّون فرأوه منطفئًا فوضعوا فوق رأسه مصباحاً، ثمّ مرّ به السّباكون فوضعوا أنابيب وبالوعة لتتطهّر أرض ما بين قدميه من البراز، ووضعوا له حنفيّة ليغتسل، ثمّ مرّ الحلاّقون فوضعوا أمامه مرآة وصابونا وشفرات حلاقة ليحلق ذقنه وعانته، ثمّ مرّ صحفيّون من صحيفة "واشنطن بوست" فوضعوا بين يديه جريدة مفتوحة على مقال عن العرب

والتّخلّف ليسلّي نفسه بالقراءة بلغة أنجليزية طليقة.

يمكننا الآن أن نُحصي الشّجر الذي قُطع، والحجر الذي طُحن، والحديد الذي أُذيب، والماء الذي تلوّث لأجل أن يُكمل ذلك الرّجل برازه على راحته. ثمّ إنّ ذلك الرّجل لم يبق على راحته، فقد هجمت عليه البلديّة بفاتورة الصّرف الصّحيّ، وشركة الكهرباء والغاز بفاتورة المصباح والماء السّاخن، وشركة المياه وصحيفة "واشنطن بوست" كلّها أغرقته بالفواتير. خلاصة الأمر، أقول لكم: الحضارة هي أن تتبرّز بين الجليز والنّور والدّفء ثمّ تدفع فواتيرك قبل أن ترفع سروالك.

أحدّثكم عن الديمقراطيّة، أقول:

هي سهلة وليّنة كتقشير الموزة وقضمها، دون التّفكير في وجه الشّبه بينها وبين الفصل الأوّل من الكتاب الأبيض للأمم المتّحدة، أو ما يوضع في مؤخّرات دول العالم الثّالث قبل أن تذهب إلى النّوم في المخيّمات وأكواخ الصّفيح.

وإن تفضّلتم، ووضعتم مكرفونا أمام فمي، وسألتموني عن نظام العالم الجديد، سأتنحْنح بلباقة قرد مثقّف في قفص، وأقول لكم:

هو مصنع كبير لتحْويل الخبز برازا، شعاره "خذْ ثمن البصلةِ من الباكي".

* * * *

(5)

مرّ زمنٌ لا أعلم حسابه، وأنا في قفص أبي خلف. زوّاري من ماكنات تحويل الخبز برازا تغيّرت أحوالهم كثيرا، بعض الذّكور منهم طالت لحيّهم كالتّيوس الجبليّة، وبعض الإناث تلحّفن بعباءات سوداء كالجنائز. شيء ما حدث خارج قفصي ولم أعرفه، ولا رغبة لي في معرفته أصلا. سيكون خروجي من حديقة البلفدير واتّجاهي نحو تمثال ابن خلدون محاكاة ساخرة لنظريّة داروين، استعادة للحظة التي افترق فيها الأخوان عند أطراف الغابة: القرد والإنسان.

– إلى أين تذهب يا أخي؟

– إلى تلك الأرض البعيدة، خلف البحر

– ستهلك في الماء، وتنتهي وليمة للحوت

– الأزرق البعيد يناديني يا أخي، وداعا

وافترقا. القرد تسلّق شجرته ضاحكا من هبل أخيه، والإنسان جدّف في البحر باكيًا جهل أخيه، وفي سفره الأوّل فقد الإنسان ذيله، يقال إنّ أسماكا نهّاشة أكلته، ويقال أنّ الإنسان هو من قطعه بعد أن علق في شجرة شوك، ثمّ تغيّر شكل أصابعه من التّجديف في الماء، وتساقط شعره بتأثير الملح، حتّى وصل أرضه الجديدة بلا ذيل وبلا شعرٍ، فغطّى عورته بورقة توت، وركض خلف الطّيور، وتعلّم النّطق من

ببّغاء، وتعلّم شمّ الأزهار من النّحل والفراش، ثمّ رأى ذئبًا يهجم على عنزة فافتكّها منه، لكنّه حين جاع أكلها، وصنع من عظامها خناجر، واختبأ في مغارة بعد أن سدّ فتحتها بحجر خوفا من اللّيل والوحوش. بعد قرون من ذلك اكتشف النّار، ومن النّظر الطّويل إلى ظلّه تحت الكواكب اكتشف الآلهة، وصنع لها التّماثيل، وذبح لها القرابين وأنْشد لها الشّعر. ومن فتنة أناشيده تعلّم المنطق والجنون، فحطّم تماثيله واكتشف اللّه. ثمّ فكّر في نقل أفكاره إلى كتاب.

إلى هذا الحدّ من إعادة شريط التّكوين بالتّصوّر الدّاروينيّ، سأكون قد وصلت المعبد اليهودي في طريقي إلى تمثال ابن خلدون، سأمرّ بالكتادرائيّة، وبينهما جامع الفتح. التّوراة والإنجيل يقرنهما القرآن، ومنه غرف عالم الاجتماع الأندلسيّ نور معرفته، وأضاء أوّل الطّرق في رحلة الإنسان ما بعد مخطوطات السّماء.

لكنّ الإنسان أغمض قلبه عن النّور، وواصل جرائمه على الأرض. فقتل أخاه الهنديّ، واقتلع شجرة عائلته من أجل الذّهب والقهوة. واستعبد أخاه الأفريقيّ وأذلّه وأنزله الدّرك الأسفل من الأرض، لأنّه لا يزال في الدّرجات السّفلى من سلّم الصّعود إلى الإنسانيّة، ومقدار تحمّله للتّعب والألم يقترب من الحيوان، هذه كانت حجّته.

ما الإنسانيّة التي يبشّر بها إذن هذا الذي وصل أعلى درجات السّلّم؟

ثمّ إنّه لم يكتفِ بذلك، فقتل أخاه اليهوديّ لأنّه دائم البكاء على الحيطان، وسمّم الياباني لأنّه أصفر ومليء بالفيتامين "ج" كاللّيمون، وقتل العربيّ لأنّه يركب الجمل، والغجريّ لأنّ شعره أشعث وقيثارته حزينة، والآمش لأنّهم يحملون صلبانًا ثقيلة. حتّى غرقت الأرض في طوفان الدّم والدّموع. بينما القرد يضحك على شجرته.

دفنت رأسي بين فخِذيّ، حتّى لا يجرفني طوفان الدّم والدّموع. أحسست بقطرات ماء تلامس جلد القرد الذي ألبسه. رفعت رأسي، كان صبيّ قبالتي يصوّب نحوي مسدّسه المائيّ، ويضحك.

* * * *

(6)

على قشرة موز بدأت اليوم أكتب ردّا على حارس القفص الغبيّ، الذي ضحك منّي البارحة وهو يقدّم لي الطّعام، ويشير إليّ ساخرا: يليق بك جلد القرد أيها الفتى.

أنا لست الوحيد من البشر الذي يلبس جلد حيوان. كلّكم تلبسون جلود الذّئاب والثّعالب والدّببة والنّمور... لكنّكم تكابرون. من يرفع الآن إصبعه في آخر العالم ويفنّد كلامي هذا؟ لولا الحيوان والنّبات لبقيتم حفاة عراة كدود الجيف.

ألم يلبس النبي يعقوب جلد نعجة ليباركه أبوه النبي

"اسحاق" مكان أخيه "عيسو"، ورغم تحيّله فإن اسمه لم يحذف من أنطولوجيا الأنبياء؟.

انظروا ذلك الرّجل الذي يسرق صوف النّعجة، ويحوّله معطفا أسود، حتّى يُضلّل العدالة ويمسح أثار جريمته، ثمّ يدخل قاعة مكتظّة بالبشر ليُحاضر عن الإنسان والحداثة والقيم...

انظروا تلك الممثّلة الباريسيّة التي تسرق هي الأخرى جلد ثعلب، وتحوّله كشكولاً ثمّ تدخل استوديو أحمر لتُمثّل لقطات بورنوغرافيّة لتسويق ماركة للملابس الدّاخليّة النسائيّة.

انظروا ذلك الأمير الذي يسرق الحرير من الدّودة، ثمّ يدخل قصره، ويتركها عاريةً دون أن يقول لها حتّى كلمة شكر.

الفرق بيني وبينكم، أنّني ألبس جلد صديقي القرد، لكنني لم أخن جوهره، ولم أحاول إخفاء سرقتي بالتّنميق والتّطريز والتّلوين مثلما تفْعلون أنتم.

أقول لكم صراحة، إنّ أفعالكم تلك تُضحك كلّ الحيوانات. بالأمس رأيت تمساحا في بركة قريبة منّي يضحك بالدّموع لأنّه رأى سيّدة بورجوازيّة سرقت جلد صديقه، وحوّلته محفظة حمراء.

كما رأيت بقرة تبتسم بسخريّة مرّة، لأنّها سمعت نشرة أخبار البشر، تتحدّث عن أزمة إنتاج الحليب وتستضيف بعض الذين يسمّون أنفسهم منتجين للحليب. ورأيت خنزيرا

يتحدّث مع أخيه وهما يشيران هازئيْن نحو شابّتين:

– انظر يا أخي، إنّهنّ يلمّعن وجوههنّ بشحومنا ويمسكن أنوفهنّ حين يقفن أمام حظيرتنا ويتأفّفن من نتونة روائحنا.

منذ يومين، نظر إليّ هريْر آكل العسل، بعد أن عرف أنّني من بني البشر، وقال لي بتأفّفٍ:

– نحن لا نمانع أن تأخذوا منّا كلّ شيء، فقط كونوا إنسانيّين كأبناء عمومتكم القِردة.

قلت له:

– حقّا أعتذر منك ومن كلّ الحيوانات نيابة عن كلّ البشر.

غير أنّه لم يعبأ لاعتذاري، وظلّ يقهقه. حتّى الزّرافة مدّت ساقها الخلفيّة، بإشارة تعني يكفيك كذبًا، وهي تُخرج لسانها الطّويل، وتقضم غيمة تبخّرت من بول البشر، وتبصقها على الإسفلت. الأسد وهو ينظّف أسنانه بعودٍ رقيق من شجرة صنوبرٍ بعد أن أكل كومة لحم بارد من فضلات البشر، قال لي:

– اصمت قليلا أيّها البشريّ، فإنّ كلماتك تُشعرني بالغثيان والرّغبة في التّقيؤ.

آه. كم أشعر بالخزي والعار أمام الحيوانات جرّاء أفعالكم أيّها البشر!

* * * *

(7)

قلت للمسؤول الذي زارني البارحة، وطمأنني بقرب موعد خروجي من القفص، أن يجلب لي بعض الكتب، حتّى أشحذ بها روحي وأنظّف ما علق بها من ذلّ ومهانة أمام الحيوانات. وصلت الكتبُ، واتّسع القفص بحجم وطن.

رفعت الكتبَ في وجوه الحيوانات محتجّا على إهانتهم لي، فخرجت منها طيور وحشرات مرحة، وأسود تعانق غزلانا، وتماسيح تحمل أزهارًا في جيوب قمصانها، وفئران تقول: السّلام عليكم، فتردّ عليها القطط بكلّ أدب: وعليكم السّلام. وكلاب تعزف على البيانو...

فعجبت الحيوانات لمَا رأت، حتّى أنّ جاري الضّبع اعترف بحماس أنّه في الأصل كان رجلا ولمّا سئم حياة البشر بين الكحول والبراز والعهر والنّفاق...جاء إلى "البلفدير" متنكّرا في جلد ضبع. قلت له:

– كيف يستوي معك الأمر، والضّبع كتفاه أعلى من مؤخّرته وأنت حين تكون على أربع يحدث معك العكس؟

قال:

– كذلك أنا لبست الضّبع بالعكس، فكان رأسه في مؤخّرتي ومؤخّرته في رأسي.

قلت له:

– وكيف تسير إذن؟.

قال:

– كأغلب البشر، أسير إلى الخلف.

تأمّلته بعجب، ولاحظت:

– يعني أنّك حين تتبرّز يكون الضّبع يتقيّأ، وحين تتقيّأ يكون الضّبع يتبرّز.

ضحك الرّجل الضّبع، وقال:

– أنت يا صديقي لم تجرّب متعة النّظر إلى العالم من دُبر ضبع.

وحسدته حقّا على نعمته تلك.

كلّ الحيوانات بعد ذلك اعترفت حيواناً حيواناً أنّها كانت بشرًا وتنكّرت في أزياء حيوانات لتهرب بجلودها من عالم البغاء والبراز.

الزّرافة مثلا كانت شابّة تمارس رياضة القفز على الزّانة، فتكاثرت تحتها جماهير الفحول البشريّة، حتّى أنّ قضبانهم أصبحت أعلى من كلّ الحواجز التي قفزتها وحطّمت بها أرقاما أولمبية، فخافت على نفسها السّقوط والهلاك فهربت إلى البلفدير في جلد زرافة.

الأسد أكّد أنّه كان قياديّا بارزا في أحد الأحزاب الوطنيّة، غير أنّ البيئة السّياسيّة في البلاد لم تسمح له بإبراز أسديّته، فحمل أدباشه وجاء ليزأر في البلفدير.

الدّبّ قال إنّه كان ملاكما، والنّعامة كانت راقصة باليه،

والحمار الوحشيّ ممثّلا في فلم بالأبيض والأسود والطّاووس بائع سجّاد...

ولم تنته سلسلة اعترافات الحيوانات حتّى حلّ البشر في المكان، فصمتت الحيوانات خوف أن يُفضح أمرها بين أخطر وشاة العالم.

* * * *

أصدقائي البشر: ليكن في علمكم منذ الآن. إنّكم تتفرّجون في أصدقائكم وأحبابكم الذين اختفوا فجأة. هم لم يذهبوا خلف البحار كما تتصوّرون، ولم ينتحروا شنقا في الصحاري البعيدة قبل أن تأكلهم النّسور والذّئاب، ولم يفجّروا أنفسهم كما تقول نشرات الأخبار. إنّهم يعيشون بأمان هنا. أتصوّر الآن أنّ "دلال" هي الأخرى لم تعد إلى أهلها مثلما ادّعت امرأة الميكياج في مبيت العاهرة العجوز، إنّما هي الآن تنظر إليّ في قفصها في جلد ذئبة.

"حميد لعور" كذلك لم يضع في الفلاة، أتصوّر أنّه لبس جلد حصان أرجنتينيّ ودخل البلفدير، لأنّ الأحصنة الأرجنتينيّة بارعة في الحكي، وهي تكتب روايات رائعة."سعيد أبو النّحس" الذي ضاع في رواية "المتشائل" لأميل حبيبي، أتصوّر أنّ هو الآخر أصبح أحد سكّان الحديقة، والجرهميّ التّائه كذلك، وكلّ البحّارة الذين اختفوا فجأة في رحلاتهم إلى الجزر البعيدة، والجنود المفقودين في الحروب، ومكتشفو البراكين الذين لم يتركوا خلفهم سوى خيوط دخان

بعد أن ذابوا في صهارات الحجر الذّائب. كلّهم هنا ينعمون بالحرّية خارج أقفاص قوانينكم وأوهامكم.

* * * *

(8)

كلّ مساء حين ينسحب البشر من مربّع الفرجة في البلفدير، تبدأ مسارّات الحيوانات وحكاياتهم عن البشر. تصبح الحديقة ساحة لحلقات نقاش. وربّما تلك الحكايات هي التي منحتني طاقة بقائي طيلة هذا الوقت في قفص أبي خلف.

– عمّنا الفيل، أنت مؤرّخنا وذاكرتنا، وأنت خبرت البشر في حروبهم وسلامهم، احك لنا عن غرائبهم وتاريخهم:

– أجدادي كانوا مسالمين وعاشبين، حين تودّد لهم ذلك القرد الأملط، وزيّن لهم الحياة بالأعشاب والمياه، تبعوه، ولمّا نطّ على ظهورهم ظنّوا الأمر مجرّد مزحة، غير أنّه حوّلهم خدماً، فقطعوا له الأشجار، ويسّروا له الطّرق، وحملوا له الأحجارَ، ولم يكتف بذلك بل اقتادهم إلى ساحات حروبه مع أخيه الإنسان، ثمّ حوّلهم فرجة في عروض السّيرك وحدائق الحيوان. ثمّ سرق أنيابهم وصنع منها آواني وتماثيل لآلهته.

– يا له من داهية محتال، تقول صغار الحيوانات. الكبار منها تظلّ صامتة فهي لا تستغرب أبدا أفعال البشر.

ويواصل الفيل حديثه، متوجّها هذه المرّة إلى ناشئة الحيوانات وشبيبتها:

– إنّه يستعمل في خدعه طرقا لا تخطر ببال حيوان، فهو يُظهر العسل في أقواله، ويخفي السّمّ في أفكاره، فلا تصدّقوه أبدا، وقاوموه بما استطعتم إلى ذلك حيلة. إنّه المسؤول الأوّل في هذا الكون عن فساد الغابات والينابيع والأنهار والبحار والسّماء أيضا.

– لكن لماذا يفعل هذا؟ أليس في الأمر ضرر له ولنا جميعا؟

ثمّ نظرت إليّ كلّ الحيوانات، كأنّها تقول: هذا واحد من المجرمين يندسّ بيننا، غير أنّ الفيل واصل كلامه، ماحيًا سوء ظنّهم بي:

– اهدؤوا يا إخوتي، هذا من سلالة البشر المتصوّفين، إنّه منقذنا ومنقذ البشر والشّجر والحجر والماء والهواء...

نزلت كلمات الفيل عليّ بردا وسلاما، لكنّ الجاموس اعترض على كلامه، قائلا:

– إنّ هذا آكل لحم متوحّش، إنّه يربّي إخوتنا في زرائبه، فيسمّنها ويذبحها ثمّ يأكلها مطبوخة في الزّيت والمرق.

– مهلا أيّها الخائر ذو القرنين، كلّنا نأكل من بعضنا، الحيوان يأكل النّبات، والنّبات يأكلنا حين نموت ونتحلّل سمادا في التّراب، وبعضنا يأكل بعضه، وبعض النّبات يأكل بعضه، وهكذا تدور دورة الآكل والمأكول في الطبيعة.

بعد ذلك تكلّم ذئب عجوز، يبدو من حديثه أنّه خبر البشر جيّدا، فقال:

– لم أر في حياتي أكثر جحودا من البشر، لأجلهم تفني أبناء عمومتنا الكلاب أعمارها في حراسة بيوتهم ومواشيهم، وتعادينا، وفي النّهاية يعتبرونها رمزا للنّذالة، فتراه الرّجل منهم يكنّي عدوّه النّذل بالكلب. أمّا نحن الذين نهاجم قطعانهم، ونملأ لياليهم وكوابيسهم بالعواء والرّعب، يعتبروننا رمزا للذّكاء والفطنة.

ثمّ تكلّم جمل قدّم نفسه على أنّه حفيد جمل كان قائد قافلة تعوّدت على الحجّ من "نوّاق الشطّ" إلى "مكّة"، فقال:

– إنّ مشكلة البشر هي الحنين، إنّ الرّجل منهم يحنّ إلى أجداده، فينزل من السّيارة أو الميترو ويركب بغلته أو جمله، ويذهب إلى القرن الثالث أو الثّاني هجري بملابس أجداده، وفي رحلته تلك يفعل العجب العجاب. حتّى الذين يحملون زانة ويقفزون إلى المستقبل ليسوا أفضل حالا من هؤلاء الذين يتوغّلون في الماضي. كلّهم تسكنهم فصول وأزمنة متقاطعة، لذلك فهم متقلّبو المزاج ويصعب فهم حالتهم تلك، ولمحاولة فهم ذواتاتهم يفتحون مستشفيات للأمراض النّفسيّة، يحشرون فيها المتخلّفين ذهنيّا جنبا إلى جنب مع المتقدّمين ذهنيّا وبين الفريقين يقف العاديّون بحقن وأقراص، محاولة منهم لإعادتهم إلى العاديّ، والعاديّ عند

البشر هو أن تأكل خبزك، وتعيش بين البغاء والبراز في كنف الدّيمقراطيّة والتّعايش السّلمي.

اكتشفت أنّ الجمل كان فيلسوفا ملهماً في حديثه عن البشر، أو ربّما قرأ بعض ذلك في روايات الحصان الأرجنتينيّ؟ فحرّكت كلماته فيّ الحماسة، وبدأت أتكلّم، وحيوانات الحديقة كلّها مصغية إليّ:

– إنّ ما يقوله الجمل هو خلاصة حكاياتكم كلّها، البشر حقّا مرضى بذواتهم وبأمراض أخرى أشدّ خطورة. لقد خمدت أرواحهم في رماد تجاربهم، وأتلفوا كنزهم الإلهيّ "الإنسانيّة" في مستنقع الدّم والدّموع. أخذتهم الغاية على حساب الوسيلة، نسوا أنّ الأكثر متعة من قضم الفاكهة هو التّسلّق إليها وقطفها. والأكثر سحرا من ضوء المصباح هو الاحتراق بناره لحظة إشعاله. إنّهم استكانوا إلى الجاهز، وأهملوا المحاولة والبحث. والجاهز له ثمنه. ما ثمن الطّعم المقدّم في صنّارة؟ اسألوا الأسماك المشويّة في الأطباق تجيبكم. ما ثمن الدّفء والعلف في المداجن؟ اسألوا الفراخ التي تدور في الأفران تجيبكم. البشر كذلك رأوا طعاما في علب مزيّنة، فباعوا قمحهم وفواكههم ولبن مواشيهم بأبخس الأثمان، واشتروا علبا جاهزة. قالوا: ما يجبرنا على القطف والحلب والرّحي والعصر...وثمّة من ييسّر لنا كلّ ذلك، ويقدّمها لنا جاهزة في علب وقوارير مزيّنة وبكلّ الأشكال والأحجام؟. وحين امتلأت أجسادهم بأمراض السّكّري

وضغط الدّم والسّرطان..طرقوا أبواب المصحّات والصّيدليّات، وتألّموا بين الأسرّة والكراسي المتحرّكة. ثمّ أدمنوا السّجائر والكحول، فتعطّلت أعضاؤهم وفسدت دماؤهم، فباعوا منازلهم وحقولهم، واصطفّوا أمام بنوك الدّم والأعضاء البشريّة، وانتهوا شحّاذين بين الشّوارع وأمام المساجد وفي شاشات التّلفزيون. لا تحسبوا أنّ ضحكاتهم هي صدى السّعادة في أعماقهم، تأمّلوا مليّا سترون أصابع رخوة تدغدغهم. إنّهم قامات من التّعاسة تبحث عن إشراقة من السّعادة بين النّجوم، بينما السّعادة تسكن الكوخ المجاور لعمارتهم. لا تضحكوا منهم. إنّهم يستحقّون الرّثاء.

* * * *

نبّهني حارس الحديقة، وهو يقدّم لي فطور الصّباح:

– صباح الخير، لماذا تُحدّث نفسك يا رجل؟.

لم أتحمّل الحديث إليه، فشطبت وقوفه جنبي بجملة واحدة استعرتها من ديوجين "تنحّ عن شمسي" قلتها بعصبيّة مفرطة، فتنحّى الرّجل مسرعاً، لكن لم تكن هناك شمس خلف السّياج، كانت السّماء مغيّمة. قدّرت الوقت: ربّما السّابعة صباحا. بعد ساعتين أو أقلّ ستتوافد على الحديقة دوابّ التّعاسة والبراز، وسيبدأ نهار آخر من فرجةٍ تضيق داخل فرجٍ يتّسع.

أحسست بخدر في مفاصلي، ومرّ أمام عينيّ شريط

أحمر تُقطّعه خيوط سوداء مرتعشة، كأنّه قطار سوفياتيّ في منتصف القرن العشرين يظهر من شبّاك سجن في أفغانستان وهو يشقّ حقلا بعيدا من الأفيون.

* * * *

(9)

أيّها الحارس أنا لا أريد منك شيئا، إن شئت سأكتب التزاما بكلّ هذا على قشرة موز.

لي رغبة واحدة، بسيطة وعميقة جدّا كدمعة السّاجد إلى ربّه.

فقط أريد الآن أن أعود إلى أمّي، ولا يهمّ إن عدت في صورتي الآدميّة أو في جلد قرد، أو في صورة ثعلبٍ أو طائر. أمّي ستعرفني حتّى لو عدت إليها بصور كلّ الحيوانات.

جرعة ضحك

(1)

تونس كلّها، بشمالها وجنوبها...ببحرها وصحرائها...بعشّ عصافيرها الذي يصرخ فيه فرخ فرنسا، بسيّدتها المضطجعة التي تمدّ ساقيها وتلاعب أفاعيها الزّرقاء والخضراء...بأفاعيها الزّرقاء والخضراء...بعاهرتها العجوز، بمدينتها العتيقة، كلّها مستعمرة لدوابّ متوحّشة هي ماكنات لتحويل الخبز برازاً. الطّواحين تدور حول مطمور روما الفارغة، والبطون تدور حول العقول الخاملة: كفْته، مشاوي، فطائر، عصائد، مرقاز، لبلابي، كسكسي، طاجين، مقرونة، هرقمة، مدفونة، عصبان...كُلّها تُلتهم في نهر من زيت النّبات، دون سؤال واحد عن تاريخ الفلفل والطّماطم والتّوابل...كم من الأرواح زُهقت في طريقها إلى نبتة ذُكرت في كتاب طبخ قديم، وحلم بها الذّوّاقون؟. اللّسان الذي يتذوّق طعامًا طيّباً يقول كلاماً طيّباً. لا أحد يتذوّق في مدينة البراز. املأ بطنك بكلّ عجينة تُبقْبق في زيت النّبات، وامسح برازك بخبزك. مسوخ جدّتي "بيّه" تقفز في كلّ مكان. لا أحد منها ينتبه لغياب

شابّ أحول نحيف، جاء من دوّار "أولاد شكون" وتاه في مدينة لا تعرف اللّه. لن تُعلّق صورة واحدة له مكتوب تحتها "المفقود: عبد الله بن إبراهيم بن ساسي بن شكون، خرج منذ ثلاث سنوات مع ابن خالته للعمل في العاصمة ولم يعد إلى حدّ هذه السّاعة، فالرّجاء ممن يتعرّف عليه مدّنا بمعلومات تخصّه، واللّه لا يضيع أجر المحسنين" كلّ هذا لن يحدث في غابة البراز والمسوخ. الحاج إبراهيم سيبصق على الأرض، ويلعن اليوم الذي رُزق فيه بالأحول، وعرب الدّوار سيتشابكون ألسنة في آذان. أجراسَ إشاعات حول غيابه. فقط أمّه الصّالحة سترْمي دلْوها المثْقوبَ كلّ مساء في بئر أعماقها لتُخرج حفنة دموع تنشرها لله، وتسقي بها أزهار الرّجاء التي أذبلها الحزن و الملح.

أمّك ثمّ أمّك ثمّ أمّك... ثمّ العدم

* * * *

(2)

فتحت عينيّ بصعوبة، كان رأسي ثقيلا كعربة الموتى، وأطرافي تتنمّل، تساءلتُ:

– أين أنا؟

انتبهْتُ أنّني ممدّد على سرير في غرفة مطليّة بلوْنٍ برتقاليّ، وتحيط بي نباتاتٌ وصورٌ لحيواناتٍ تشبه الرّسوم التي خرجت من الكتب التي كنت أتصفّحها في قفص القرد،

تبدو فيها زرافاتٌ بربطات أعناق مزركشة، وأسود تمشط لبداتها بقنافذ، وأبقار وحشيّة تجترّ الكلأ وتبتسم مثل صعاليك يدخّنون الكنابيس، وضباع ترتدي سراويل دجينز ممزّقة وتتسكّع في غابة محترقة...

سمعت حواراً قريبا منّي، ثمّ تبيّن لي أنّه صوت الأستاذ زاهي يحاور امرأة، أدرت رأسي ناحيتهما، فرأيت امرأة جميلة تمسك قلما أخضر تديره بين أصابعها وتتكلّم مع الأستاذ زاهي، كانت تصف له حالة نفسيّة معقّدة، وتشير ناحية السّرير الذي أتمدّد فوقه:

– إنّه مرض نفسيّ معقّد أستاذ، يُطلق عليه اسم "البوانثروبي"، والمصاب به يتخيّل نفسه حيواناً، وقد أصاب ملك بابل "نبوخذ نصر" الذي كان يتخيّل نفسه بقرة، وكان يخرج ليرعى العشب في المراعي قرب دجلة ويخور مثل الأبقار، وهي الحالة التي يعاني منها "عبد الله" الذي يتوهّم نفسه قردا.

قال الأستاذ زاهي:

– لا أجد داع لاعتقاله في مستشفى الرّازي، فحالته طبيعيّة، هي حالة إبداعيّة لا غير.

قالت المرأة، والتي تأكّدتُ أنها طبيبة نفسية في مستشفى الرّازي من خلال حديث الأستاذ زاهي:

– لا أتصوّر أنّ حالته عادية، لقد وجدوه ملتصقاً بقفص القرد، ويقوم بحركات غريبة، فهل تتصوّر أنّ هذه حالة

عادية؟، ثمّ لماذا تتحدّث عن حكاية اعتقال؟، نحن جلبناه هنا لنعالجه فقط.

قال الأستاذ زاهي بغضب:

– كان يمكن أن تتركوه وشأنه، فهو لا يمثّل خطراً على المواطنين.

قالت الطبيبة:

– قل لي أولا، هل تعرف أهله؟.

– لا أبدا، ولم أسأله يوما عن ذلك، ما أعرفه عنه، أنه شابّ نازح من الجنوب التونسيّ، كان يشتغل في بار قاريبالدي، وهو موهوب في كتابة القصص.

– له موهبة في كتابة القصص، هل يمكن أن تمدّني ببعض كتاباته؟.

– سيكون لك ذلك دكتورة، لكن هل تسمحين لي بإخراجه من مستشفى المجانين؟

– لا يمكن الآن قبل أن تتحسّن حالته.

– سألتزم باستقدامه يوميّا، وسأعتني به جيّدا في بيتي.

– الأمر في غاية الخطورة على صحّته أوّلا، وعلى أمن المحيطين به. هل فهمتني أستاذ؟.

– ستقتلونه مثلما قتلتم "منوّر صمادح"، لن أسمح لكم بذلك، سأفضحكم في الصحف والإذاعات. لن أصمت أبدا على هذه الجريمة في حقّ شابّ مبدع.

كان الأستاذ زاهي يتكلّم بتشنّج وقد أشعل غليونه، وراح

ينقله بعصبيّة من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وفي اللّحظات التي تتكلّم فيها الدّكتورة كان يضعه بين شفتيه ويمتصّه إلى أن ينطبق فمه، ثمّ يخرج الدّخان والكلام الغاضب من فمه مثل مدفع ألماني في الحرب العالميّة الثانية يترصّد سرب مقاتلات تخرج من شفتيْ الطبيبة الجميلة قبالته. أمّا أنا فلم تغادرني صورة الملك نبوخذ نصر وهو يتخيّل نفسه بقرة، وتصوّرت أحد الصعاليك في ضواحي بابل يتخيّل نفسه ثورا، ويلتقيان في مشهد حبّ بقريّ على ضفّة دجلة. دغدغتني الصّورة الكاريكاتورية فرحت أضحك بصوْت مرتفع، محاكيا ضحكات "أبي خلف": هو.. هو.. هو...

قالت الطبيبة:

– هل تسمع ضحكاته؟. أتبدو لك طبيعيّة؟.

قال الأستاذ زاهي:

– وهل يبدو فهمك أنت لها طبيعيّا؟.

وازداد ضحكي، وارتفع، حتّى لم أعد أسمع غيره: هو.. هو.. هو.. هو.. هو...

انتهت في شتاء 2014

الفهرس

- تحت تمثال ابن خلدون..... 7
- دلال..... 17
- الذّئب 29
- في الحديقة الخلفية لقرطاج..... 37
- مخطوطة "القرد"..... 63
  - قصّة: روح حبيبي..... 65
  - قصّة الحديقة الوطنيّة للحيوانات..... 69
  - قصّة مربّع السّعادة..... 74
  - قصّة: وطن الغوريلا..... 77
  - قصّة: قرد النّيل الأزرق..... 81
- اللّيالي الخضراء في المدينة العتيقة..... 85
- النزيل الجديد في البلفدير..... 107
- جرعة ضحك..... 131

على قشرة موز بدأت اليوم أكتب ردًا على حارس القفص الغبيّ، الذي ضحك منّي البارحة وهو يقدّم لي الطّعام، ويشير إليّ ساخرا: يليق بك جلد القرد أيها الفتى.

أنا لست الوحيد من البشر الذي يلبس جلد حيوان. كلّكم تلبسون جلود الذّئاب والثّعالب والدّببة والنّمور...لكنّكم تكابرون. من يرفع الآن إصبعه في آخر العالم ويفنّد كلامي هذا؟ لولا الحيوان والنّبات لبقيتم حفاة عراة كدود الجيف.

ألم يلبس النبي يعقوب جلد نعجة ليباركه أبوه النبي "اسحاق" مكان أخيه "عيسو"، ورغم تحيّله فإن اسمه لم يحذف من أنطولوجيا الأنبياء؟

انظروا ذلك الرّجل الذي يسرق صوف النّعجة، ويحوّله معطفا أسود، حتّى يُضلّل العدالة ويمسح أثار جريمته، ثمّ يدخل قاعة مكتظّة بالبشر ليُحاضر عن الإنسان والحداثة والقيم...

مكتبة نوميديا
https:/t.me/Numidia_Library

9 789938 921632

الثمن : 14د